د. طالب عمران

الكهوف المنسيّة

(رواية من الخيال العلمي)

» اسم الكتاب: الكهوف المنسيّة.
» اسم المؤلـف: د. طالب عمران.
» الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-34-7
» الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.
» سنة الطباعة: 2019.

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سوريا - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

00963115637060

خلوي: 00963932832010

aklpublishing@gmail.com

(1)

ضباب القلوب الميّتة

كانَ قلبه يخفق بشدّة، وهو يقتربُ من المنزل الذي شهدَ طفولتهُ وصباه وقد شعرَ أنّهُ سيقابل أناساً، اشتدَّ ظلمهم لهُ في السنوات الأخيرة، كانَ الطريقُ خالياً، توقّفَ أمامَ البوّابة الخارجية، ولكنهُ سمعَ صوتاً يناديه، فالتفتَ ليرى جارهم القديم العجوز الشيخ مصباح:

- آهٍ يا بُنيّ، منذُ سنواتٍ لم أرك.

- أنا آتي قليلاً إلى هنا يا عم، تعلم أن عملي في العاصمة.

- ولكنكَ تركتَ كل شيءٍ هنا، كأنكَ لا تملكُ شيئاً في بيتِ أجدادك.

- لا بأس يا عم، إنّها خطيئةُ أبي رحمه الله.

- كثرت أقوالهم وحكاياتهم المشوّهة لسمعتكَ، ولكنّهُ رحمهُ اللهُ اكتشفَ كذبهم في أيامهِ الأخيرة، بعدَ أن سبقَ السيفُ العذل.

- هي الحياةُ يا عم، لم يكن في يدي شيء.

- بل كنتَ تملكُ كل الوسائل يا هاني لمجابهتهم والانتصار عليهم.

- إنّهم بعضُ أهلي، لا أستطيعُ مواجهتهم.

- ولكنهم آذوك.

- لا أقابلُ الشرَّ بالشرّ.

- تفضل اشرب القهوة معي قبلَ أن تصعدَ إليهم، أنا خائفٌ عليك.

- لماذا؟ ما سببُ خوفكَ يا عم مصباح؟

- سأخبركَ بكلّ شيءٍ، تعال.

ولكنَّ بدريّة التي تتبعُ نائلة كظلّها فاجأتهُ، كانت امرأة ممتلئة أوقفتهُ تسلّم عليهِ مبديةً لهفةً لم تكن مقنعةً لهُ فهو يعرفُ صاحبتها:

- أهلاً بك يا بنيّ، هذه أوّلُ مرة تأتي لزيارة هذه المنطقة بعدَ هذه السنوات؟

- لا يا خالة، صحيحٌ أنّي آتي في أوقاتٍ متباعدة، ولكني لم أنقطع سنةً عن زيارتها.

- إلى أين أنتَ ذاهب؟ إلى البيت الكبير؟

- نعم، زيارة سريعة، هناكَ بعضُ الأغراض التي تخصّني أريدُ أن آخذها، أحتاجها كثيراً.

قالت:

- هيّا سأرافقك.

همسَ لهُ الشيخ مصباح راجياً:

- أتمنّى أن لا توافق، هي امرأةٌ مخادعة.

قالَ للمرأةِ معتذراً:

- وعدتُ العمَّ مصباح، أن أتناولَ معهُ القهوة في منزلِهِ.

همستْ لهُ:

- ولماذا تذهبُ معه؟ إنّهُ كهلٌ ثرثار، لا يحب أقرباءك.

- ولكنّي وعدتهُ.

عادت تهمس:

- انسَ أمرهُ الآن، وعِدهُ بقبولِ دعوتهِ في زيارةٍ أخرى.

- لا بأسَ يا خالة، سأشربُ القهوةَ عندهُ، وأعودُ سريعاً.

ولكنّها أصرّت:

- أنتَ عنيدٌ أكثرَ من اللازم، هو كهلٌ لا يحبّهُ أحد هنا لكثرةِ ثرثرتهِ، يتكلّمُ عنّا بالسوءِ دائماً.

همسَ لها:

- لا تخافي من هذه الناحية، لن أستمعَ لأقوالهِ.

- إذا وعدتني بذلكَ، سأتركَ لدقائق لتشربَ القهوة، وآتي إليكَ لأصطحبكَ إلى البيتِ الكبير، من الأفضل أن أرافقكَ، سيعينكَ وجودي.

قالَ مستسلماً:

- اتفقنا.

كانت نائلة هي المرأةُ المخططة لكلّ ما حدثَ في العائلة، ولأنّهُ لم ينحنِ لها، صبّتْ كلَّ كراهيتها عليه، وشوّهت النيّة محاولة تدمير أقربائه.

أدخلهُ الكهلُ (مصباح) إلى الصالة، وهو ينادي زوجتهُ:

- يا هديّة، تعالي سلّمي على هاني، إنّهُ يزورنا.

اندفعت العجوزُ نحوهُ بلهفةٍ وهي تبكي:

- هـاني، بعـدَ زمـانٍ يـا بُنـيّ، رحـمَ اللـهُ والدتـك، كانـت صديقتـي المفضلـة، كيـفَ تذكرتنـا بعـدَ هـذه السـنوات؟

قالَ مصباح موضّحاً:

- أتى يأخـذُ بعـضَ الأشـياء مـن البيـتِ الكبـير، جهّـزي لنـا القهـوة، سـيجلسُ لدقائـق عدّة.

- ولماذا لا يتناولُ الطعامَ معنا؟ سأكونُ سعيدة بذلك.

قال هاني:

- شكراً لكِ يا خالة، ليسَ لديّ الكثير من الوقت.

- هيّا يا امرأة عجّلي، قلتُ لكِ زيارتهُ سريعة.

- حسناً يا بُنيّ.

قالَ لهُ مصباح مشفقاً:

- اسـمع يـا بُنـيّ، يجـب أن تكـونَ حـذراً وأنـتَ تدخـلُ إليهـم، حـاول أن لا تـأكلَ مـن طعامهـم أو تـشربَ مـن شرابهـم، هم لا يطيقـونَ رؤيتـكَ، وليـسَ صعباً عليهـم دس السـمِّ لـك.

همهمَ هاني مدهوشاً:

- إلى هذهِ الدرجة؟ معقول؟

- كنـتَ تـأتي من قبـل ومعكَ صديق من مسـؤولي المدينة هنـا، أنتَ تزورهم الآنَ لوحدكَ، ليتهم يسـمحونَ لي بالدخولِ معك.

- أرجوكَ قُل لي، ما هي آخرُ أخبارهم؟

- تعلم أنّهم أخذوا كلَ شيء بعدما وقّعوا والدكَ على الكثيرِ من الأوراق.

- نعم أعرفُ ذلك.

- وقد حاولَ زاهي أن يبيعَ الأرضَ التي أورثتها أمّكَ، لكما، ولكنَ الشاري اشترطَ موافقتكَ، فالبيعُ باطل دونَ موافقتك، لذلكَ زوَّر ورقةً على أنّها منكَ، وأقسمَ وشهودُ الزور الذين معه، أنّها منكَ لذلكَ رضي الشاري أن ينقدهُ ثمنها نقداً.

- معقول؟ أنا قادمٌ من أجلِ هذه الأرض، أريدُ أن أشتري حصّةَ زاهي.

- ذهبت الأرض منذُ أكثر من سنة.

وأتت هديّة ومعها القهوة:

- تفضل يا بُنيّ، قهوة وسط، أذكرُ أنّكَ تحبّها هكذا.

- بارَكَ الله بكِ.

سألت مصباح:

- حكيتَ لهُ عن قصة عماد؟

- لا، ليسَ بعد، إنّها لا تعنيه كثيراً.

- ولماذا لا تعنيه؟ عماد اشترى من زاهي سطحَ البيت الكبير، وهو الشيءُ الوحيد الذي تمكن والدكَ من كتابتهِ باسمكَ.

- ماذا؟ معقول وكيفَ تمكن من بيعهِ دونَ موافقتي.

- كما فعلَ مع الأرض التي خلفتها أمّكَ لكما.

قالَ مصباح:

- القصّة مفبركة، أنتَ لا تستطيعُ أن تخوضَ معركة مع عماد، إنّهُ نذلٌ

حقيقي، وزاهي عرفَ كيفَ يوقعكَ مع نذلٍ جديد، هو يعرفُ أخ زوجته جيداً.

ورنَّ جرس البابِ بإلحاح، فقالَ مصباح:

- إنّها تلكَ المرأة، أتت تصطحبكَ.

قالت هديّة ساخرةً:

- من؟ بدريّة البالوعة؟

ضحكَ مصباح:

- نعم، وكيفَ عرفتِ؟

- هي مراقبةٌ جيّدة لأيةِ حركةٍ في الحي.

فتحَ الباب فدخلت باستعلاء:

- كيف حالك يا هدية؟

ردّت ساخرة:

- بخير، هه، لا ينقصني سوى رؤيتك، لماذا لا تزورينني؟

- لا وقتَ لديّ، مشغولة، تعرفينَ مشاريعَ نائلة؟

تابعت هديّة ساخرة:

- بالطبع، وأنتِ يدها اليمنى، أنا أحسدكِ، ليتني كنتُ مكانكِ.

- لا، مستحيل، بدرية تحبني كثيراً، ولن تستغني عنّي بأيّ ثمن، هه، هيّا يا أستاذ هاني، تفضل.

همست هديّة بحنان:

- انتبه لنفسك يا بني.

اصطحبتهُ المرأة خارجاً، واقتربت من المنزلِ الكبير وفتحت البابَ

الخارجي، وأشارت إليهِ أن يدخل، وتأخّرت خطواتٍ عنه، وفجأةً شعرَ بشيءٍ يندلقُ عليه، كانَ سائلاً لزجاً، يبدو أن أحداً في الطابقِ الثاني قد ألقاهُ عليه.

شمَّ بقايا طبخ، وقد شعرَ بالقرف وهو يحاولُ إزالةَ البقايا عنهُ، وسطَ ضحك المرأة.

- كيفَ حدثَ وألقوا عليكَ هذه البقايا؟ لا بدّ وأنّها الخادمة.

- أيلقونَ بقايا الطعام هكذا أمامَ المدخل؟ هل هو مكانٌ للنفايات؟ العملية مقصودة، أرادوا السخرية منّي.

قالت محاولةً تهدئته:

- بالطبع هذا غير صحيح، تعالَ سأحاولُ إزالة التلوّث عن ثيابكَ.

- أحتاجُ لتغيير كل ملابسي، ثم الاستحمام، لم يعد الدخول للبيتِ الكبير مناسباً.

وانفتح أحدُ الأبواب المجاورة لتخرجَ نائلة وهي تردّد بسخريةٍ حاولت إخفاءها:

- الأستاذ هاني؟ ماذا جرى لك؟ دلقت عليكَ الطبخ البائت؟ هذا لا يجوز.

قالت بدرية:

- إنّهُ منزعج، أينَ هي تلكَ الخادمة الوقحة؟

قالت نائلة:

- آسفة، أنا المخطئة، قلتُ لها إن رأيتُ الصحون والقدور غيرَ النظيفة في المطبخ سأدلقُ محتوياتها إلى الخارج، ثم أرسلها بعدَ ذلكَ لتتعذّب بتنظيفها. يبدو أنني لم أنتبه لك، فدلقت البقايا عليك.

قالَ بمرارة:

- شكراً لك.

أمسكتهُ من يده:

- إلى أيـن؟ لا يمكـن أن أسـمحَ لـكَ بالذهـاب هكـذا، لديَّ ثيابٌ على مقاسـكَ في الخزانة، وستسـتحمُ عندي.

- شكراً لك، يجب أن أذهب.

وفجأةً ظهرَ عماد ابنُ عمّه شديدُ الوقاحة:

- كيف حالك يا خالتي بدريّة، هه، ما هذا؟

انجرَّ ضاحكاً وهو يتأمّلُ هاني ضاحكاً بتشفٍّ:

- رجلٌ يتحرّك وفوقهُ القاذورات.

ردَّ هاني غاضباً:

- احفظ أدبك.

تابعَ ساخراً:

- عفواً لم أنتبه، هذا أنت.

شـعرَ هـاني أن عليـهِ أن يذهـب، فالوضـعُ يـزدادُ سـوءاً. لم يتوقّـع في حياتـهِ أن يحـدثَ لـهُ مـا حـدث، لقـد هزؤوا منـهُ بطريقـةٍ مهينـة، شـعرَ بالغصّـة تحرقهُ، وهـو يتوجـهُ صـوبَ سـيارتهِ التـي أوقفها قـربَ الرصيـفِ المقابل، وصيحـاتُ بدريّة وضحـكات عـماد تصلـهُ دونَ توقف.

لحظَ مصباح ما يحدثُ لهُ فهمسَ مشفقاً:

- أنا آسفٌ لأجلكَ يا بني، إنّهم أوغادٌ بلا ضمير.

سمعَ صوت بدرية وراءهُ:

- نائلة مصرّةٌ أن تعود، تريدُ أن تعتذرَ منك، الناس يتجمعون.

قالَ مصباح وهو يرى منظرهُ المزري وقد اقتربَ من السيّارة:

- سأحضرُ لكَ غطاءً تضعهُ على مقعدِ السيارة حتى لا يتلوّث.

ولكنَّ بدريّة أصرّت:

- ستدخل وتغيّر ملابسكَ بعد أن تستحمّ في بيتِ نائلة.

قال ساخراً:

- أصبحَ بيتها الآن؟ اعتقدتها ضيفةً عندَ ابنة أختها.

- نعم، اشترتهُ من زاهي، أحبّت أن تجاورَ البيت الكبير.

عادَ مصباح وقد أحضرَ معهُ غطاءً:

- ضع هذا الغطاء على المقعد، لن تلوّثَ المقعد هكذا، يمكنكَ الذهاب يا بُنيّ.

لاصقهُ وهو يتمتم:

- يا بُنيّ أعلمُ إن عرضتُ عليكَ الدخولَ إلى بيتي وتنظيف نفسكَ ستغضبُ نائلة من هديّة، وتشنّعُ عليها في الحيّ، نائلة امرأة تفوق بوقاحتها كلّ الناس.

شدَّ على يديه:

- في حفظِ الله يا بُنيّ، يمكنكَ الذهاب الآن.

قالت بدرية:

- لماذا تصرُّ على ذهابهِ يا مصباح، نائلة تريدهُ أن يدخلَ بيتها وينظف

نفسهُ .

قالَ هاني غاضباً:

- وأنا لا أريدُ ذلك، أريدُ الذهابَ من هنا سريعاً.

وجاءت نائلة، كانت تهرولُ خارجةً من البوابة الكبيرة صوبَ هاني الذي كان يستعدُّ للانطلاق بسيّارته.

كظم غيظهُ «ما أشدَّ وقاحة هذه المرأة، يجب أن أخرجَ لمجابهتها».

انفجرَ غاضباً وهو يصرخ ليسمعهُ الناس:

- أترونَ هذا المنظر يا ناس، جئتُ أزورَ البيت الكبير حيثُ عشتُ طفولتي وصباي، استقبلوني بإلقاء الفضلات عليّ.

همستْ لهُ:

- لا داعي لذلك، خلاص.

- آه، ماذا أقول؟ لم يتركوا لي شيئاً سوى الحقد. قال أحد المتجمعين:

- أنتَ بعتَ حصصك؟

- أيّةُ حصص؟ زوّروا تواقيعي وأحضروا شهودَ الزور.

علت صيحات الاستغراب:

- ماذا تقول؟

- لم يترك لي والدي سوى سطح البناء، وقد زوّروا توقيعي وباعوه للسيد عماد، المحترم، جئتُ أزورُ المنطقة، فاستقبلتني المنطقة بإلقاءِ الأوساخِ عليّ، بكل كراهية.

علّقَ أحدهم:

- نائلة لا تمثل المنطقة.

رجتهُ نائلة:

- اسكت يا هاني، ما هذا؟ اعتذرت عن خطئي فلم تقبل اعتذاري.

- لو كانَ خطأ غير مقصود.

- المهم اعتذرتُ منكَ، هيّا لا تجعلهم يشمتونَ بنا.

التفّ الناس حولهما.

قالت بدريّة:

- اتركيه يذهب، إنّهُ غاضب، ويبدو أنّ غضبهُ ليسَ سهلاً.

أبعدَ الناس بلطف:

- عن إذنكم.

انطلـقَ سريعـاً ورائحةُ الفضلات تزكمُ أنفهُ، فقصدَ منـزل خالد أحد أصدقائه بعـد أن اشـترى لباسـاً جديـداً مـن أحـد المحـلات، وسـطَ اسـتغراب الموجوديـن في المحـلّ، ونفورهـم منـه، ولكـن أحدَ العمال سـاعدهُ حتـى أنهى عمليـة الشراء.

رآهُ خالـد عـلى تلـكَ الحالـة فاسـتغرب، وحـينَ حـكى لـه ما جـرى، هزّ رأسـه قائلاً:

- هذه طريقة سهلة لإبعادكَ عن هنا.

- ماذا تقصد؟

- قصـدوا إبعـادكَ بهـذهِ الطريقـة المضحكـة، ربمـا حاولـوا إخفـاءَ شيءٍ مهـم عنك .

- تنصحني أن أعود؟

- بالطبع.

- هل ترافقني إلى هناك؟

- لم لا؟ لستُ أخافُ منهم.

- حسناً سنعود معاً.

اغتسـلَ هـاني ثـم ارتدى لباسـهُ الجديد واتجـهَ مع خالد صـوبَ البيتِ الكبير مـن جديـد، أوقفَ السـيارة قـربَ الرصيف، وهبطَ وخالـد، ليفتحَ البوابـة الخارجية ويطرق الباب.

فتحَ زاهي لهُ، وفوجئ بوجودهِ.

- اعتقدناكَ ذهبت ولن تعود.

- لا، يجـب أن آخـذَ الأشـياء التي تركتها في الصنـدوق، ومن بينها مخطوطات قديمـة، أهداني بعضهـا كُتّابٌ معروفون.

- مع الأسف، ألقينا الصندوق في الخارج.

- ماذا تقول؟

- كنـا نسـمعُ أصواتـاً قارضة في الليل، كـسرتُ القفلَ لأجد الفـئران قد فرّخت في الصنـدوق والتهمت كتبكَ ومخطوطاتكَ.

قالَ مذهولاً:

- مستحيل، إنه صندوقٌ مغطّى بالقصدير، كيف تخترقه الفئران؟

قال زاهي بغضب:

- أنا لا أكذب.

برزَ وجهُ عماد خلفَ زاهي، ردّد بسخرية:

- عدت، نظفت نفسك.

قالَ خالد:

- ألن تدخلنا يا أستاذ زاهي؟

خجلَ وابتعدَ عن الباب:

- عفواً تفضلا.

كانَ هناكَ حشدٌ من الناس في الصالة. همسَ خالد في أذنهِ:

- كل أهل زوجتهِ هنا، كأنّهم يقيمونَ معهُ.

ردَّ هاني:

- قلتها لهُ مرّةً فشتمني على الهاتف بشكلٍ قبيح.

قالَ زاهي لهاني:

- تعرفُ الجميع، وهم كلّهم مقهورون منك ومن أعمالك.

- أنا؟ ماذا فعلت؟

- شوّهتَ سمعتي، وسمعتهم، واختلقتَ أشياء كاذبة كثيرة.

- أنا، أم أنت؟

رجاهما خالد:

- يـا جماعـة لا داعي للشـجار، اطلب الأشـياءَ التي تريدها يـا هاني ولنذهب من هنا.

قالَ هاني مخاطباً أخيه:

- اختفى الصندوق، حسناً أينَ وضعتم الخزانة القديمة؟

- تفضل، إنّها في تلكَ الزاوية، ماذا تريدُ منها؟

- لديّ مفتاحُ أحد أدراجها، وضعتُ فيهِ بعضَ دفاتري القديمة وأرشيفي.

- أنت؟ ومتى حدثَ ذلك؟ كل الأدراج مفتوحة، ولا يوجد درج مقفل.

- يا إلهي، معقول؟ كيفَ حدثَ ذلك؟ وأينَ أوراقي؟

ردَّ زاهي بغضب:

- وجئتَ إلى هنا لتختلق قصّة جديدة؟ معقول؟

اتجهَ صوبَ الباب وهو يشعرُ بمرارةٍ شديدةٍ:

- هيا يا خالد، لنذهب من هنا.

ثمَّ توقّفَ فجأةً:

- ولكـن قبـلَ أن أذهـبَ أصحيـحٌ يا زاهي أنّكَ بعتَ سـطح البيـت، وحصتي في أرضِ أمّي؟

- السطح؟ وما علاقتكَ به؟ وأيُّ أرضٍ لكَ حصّة فيها؟

- حسبي الله ونعمَ الوكيل، هيا يا خالد.

قالت زوجةُ أخيهِ:

- ألن تشربَ القهوة؟ أم قهوتنا لا تُشرب؟

- فعلاً لا تُشرب.

ولسـوءِ حـظِ هـاني رنَّ جـرسُ الباب ففتحـهُ زاهي لتدخل نائلـة وهي تصرخُ بانتصار:

- أرأيتَ يا زاهي ما فعلتُ بأخيك؟ أضحكتُ أهلَ الحارة عليه.

قالَ زاهي ساخراً:

- أهلاً بكِ، إنّهُ هنا.

- أنا، آسفة.

- فعلاً أضحكتِ أهلَ الحارة عليّ، لقد صنعتِ نصراً جديداً، هيا يا خالد.

قالَ عماد ضاحكاً:

- حكيتُ ما فعلتِ لهم، عرفتِ كيفَ تنتقمين منه.

- لقد أساءَ إليّ وسماني «الحيزبون»، أنا حيزبون أيّها الأخرق؟

شعرَ أنّهُ يكادُ يتعثر وهو يشدُّه إليهِ كأنّهُ يستنجدُ به، فقال خالد بغضب:

- يكفي يا جماعة، على الأقل احترموا وجودي معه.

قالت نائلة:

- آسفة يا أستاذ خالد، آسفة عن الجميع.

لم يشعر بالقهر في حياته، كما شعرَ في تلكَ اللحظات، صعدَ في السيارة مع خالد، ورأى الخالة هدية تلوّحُ لهُ بحزنٍ، وقُربها مصباح يقفُ واجماً على النافذة.

هذهِ هي نهايةُ ذكرياتكَ في هذا البيت يا هاني، أنهوا كلّ علاقة لك بماضٍ جميل عشتهُ برومانسيتهِ وصفائهِ.

كم لعبنا في طفولتنا في هذا الشارع! وكم جلسنا على الشرفة في بداية فتوّتنا، نراقبُ صبايا الحي ونحنُ نزدرد لعابنا! كم قضينا من أمسياتٍ جميلةٍ على سطحِ البيت مع بعضِ الأصدقاء، نراقبُ النجوم والأفلاك، ونحصي عدد الشهب المتساقطة!

شعر به خالد وهو يتعذب، ولم يكن في استطاعته تقديم العون له، وبعدَ

أن أوصلـهُ للبيـت رجـاهُ خالد أن يرتاحَ قليلاً، وأن لا يسـافرَ وهـو مقهورٌ مما حصلَ لـهُ إلى هـذه الدرجـة ولكـن «هـاني» أصرَّ عـلى السـفر، والشـمسُ تجنـحُ للمغيـب، كانَ عليـهِ أن يقطـعَ مسـافةً طويلـةً بينَ الجبال، قبـلَ أن يصلَ الطريـق العريض.

طـمأنَ خالـداً أن كلّ شيءٍ سـيكونُ بسرعـةٍ خارجـاً من المدينة، حين شـعرَ أن سـيارةً خلفهُ تشـيرُ لـهُ بمصابيحها.

فوقـفَ عـلى جانب الطريـق بصعوبةٍ، فلم تكـن المكابح تسـتجيبُ كعادتها، لم تكن السـيّارة عـلى طبيعتها.

وقفت السيّارة التي خلفهُ، ونزلَ منها سائقها.

- هناكَ شيءٌ سائل يخرج من السيّارة، إنه يصنعُ خطاً متصلاً وراءك.

ظهرَ خط السائل واضحاً خلفَ السيّارة، شمَّ رائحة بنزين،

سألهُ الرجل:

- هل عبّأت الخزان قبلَ قليل؟

- لا، أبداً، يا إلهي، البنزين يكادُ ينفدُ عندي، كانَ الخزّان ممتلئاً.

- سـيارتكَ جديـدة؟ غريـب، يجـب أن تمـرَّ عـلى ميكانيـكي بسرعـة، هنـاكَ ميكانيـكي عـلى الطريـق بعـد نحـو الكيلومتريـن، أرجـو أن يكـون محلّـهُ مفتوحـاً.

- شكراً لك.

مـا الـذي حدث للسـيارة؟ منذ عامين لم يأخذها لورشـة تصليـح، إنّها حديثة، ومـن النـوع الممتـاز، ماذا حدثَ لها؟ كأن كل شيءٍ أصبحَ سـيّئاً، يا لتعاسـته.

وصـلَ إلى الميكانيـكي، وكانَ محلّـهُ مفتوحـاً لحسـن الحـظ، وبعـد أن تفقدها جيـداً قـالَ لهُ:

أحدهـم ثقـبَ لـكَ الخـزّان، بمثقابٍ كهربـائي، وخـرّبَ مكابحَ العجلـةِ اليمنى الأمامية.

- معقول؟

- هـذه سـيارة حديثـة، خـزان بترولهـا سـميكٌ وقـويّ حتـى لا يتأثـر بـشيءٍ، هـه، انظـر العجلـة اليمنـى أيضـاً، أتـرى؟ أحدهم عبـثَ بسـيارته، بدا هـذا واضحاً.

- أرجوكَ أصلحها بشكلٍ جيد، وسأدفعُ لكَ التكاليف مهما كانت.

- لا بأسَ يا أستاذ، وإن كان لحام الخزان شديدَ الصعوبة.

اسـتغرق عمـلُ الميكانيـكي أكـثرَ مـن سـاعتين، ثـم ذهـبَ لإحضـار (صفيحـة بنزين) لتشـغيل السـيارة، وعادَ ليسـلّم السـيارة لهـاني لينطلق فيها مـن جديد. عادَ يتذكـر مـا جـرى لـهُ في البيـتِ الكبـير مـن أحـداث أكّدت لـهُ مـدى الكراهيـة التي يكنونهـا لـهُ، لدرجـة أنّهـم أرادوا الخلاصَ منـه، لولا الصدفة لما اكتشـف ما تعرضت لـهُ السـيارة مـن تخريـبٍ، لذلكَ ربطَ حـزامَ مقعدهِ جيـداً، كأنّهـم أرادوا قتله فعلاً.

بـدأ الطريـق الجبـلي يـدورُ ويلتـف، وأضـواءُ مصابيـح السـيارة تشـقّ عتمةَ الليـل، كانَ بالـهُ مشـغولاً، أيمكـن أن يحـدثَ خلـل آخـر في السـيارة، رغـم تأكيدات الميكانيـكي؟ لمـاذا يـصرون عـلى الخـلاص منـه؟ ومـا الـذي فعلـهُ لهـم؟ أمعقـولٌ أن يصـلَ الحقـد إلى هـذه الدرجـة؟ ومـا مـبررات هـذا الحقـد؟ هـل هي كلمـة الحق التـي قالهـا، ويمكـن أن يقولهـا دونَ تـردد مهـما ازدادت درجـة التهديـد والوعيـد؟

ازدادَ الطريـقُ وعـورة وكـثرت التفافاتـه، وفجـأةً شـعرَ بالقلـق ينتابـهُ، تطورَ هـذا القلـق خـلالَ لحظاتٍ قبلَ أن يتحـوّلَ إلى خوفٍ من شيءٍ مجهـول يدورُ حوله.

اهتـزّت السـيارة فجـأةً وهـو ينعطـفُ وشـعرَ أن الزمـامَ يفلـتُ منـهُ، وهـي

تتمايـلُ كأنَ عجلتهـا اليمنـى الخلفيـة قـد أصيبـت، ولم يسـتطع القيـام بـشيء وهو يـرى السـيارة تخـرجُ عـن الطريـق وتتجـهُ صـوبَ سـفحِ الجبل.

تملكـهُ الرعـب وهـو يشـعرُ بنفسـهِ يهـوي مـع السـيارة والحـزام يشـدّهُ إلى مقعدهـا وفجـأةً اصطدمـت بشيءٍ أوقفها، ولكنهُ لم يسـتطع اسـتيعابَ مـا جرى لهُ بعـدَ ذلـك، فلقـد سـقطَ في غيبوبـةٍ لم يسـتيقظ منهـا إلا بعـدَ وقـتٍ لا يعـرفُ عنهُ شيئاً.

كانَ في حالـةٍ مزريـةٍ وهـو مربـوطٌ بحـزامِ المقعـد والسـيارة تسـتقرّ فـوقَ شـجرة كثيفـة الأغصـان، نظـر حولـهُ، كانـت الشـمس تجنـحُ نحـو المغيـب، وتحتـهُ دغـلٌ كثيـفٌ ينتـشرُ عـلى السـفح، كانَ الـدمُ ينـزفُ منـهُ، وقد شـعرَ أنّـهُ يتجمد في بعـضِ مناطـق جسـمه.

تحامـلَ عـلى نفسـهِ وفـكّ حـزامَ المقعد، ثـم فتحَ بـاب السـيارة المتوقفة على مجموعـةٍ متكاثفـةٍ مـن الأغصـان، حـاولَ أن يُـدلي رجلـهُ ليثبتهـا على طـرفِ غصنٍ قـويّ فلـم يسـتطع، كانَ يشـعرُ بعطشٍ شـديد، فبحثَ عـن زجاجة المـاء الموضوعة تحـتَ المقعـد فعـثرَ عليهـا وشربَ نصفهـا، واسـتردَّ وعيـهُ قليـلاً، ولكـن صوتـاً وصلهُ مـن الـوادي كانَ صـوت امـرأةٍ تتحـدثُ مـع رجلٍ بعيـدٍ عنها.

- لم أعثر على البقرة يا نعيم.

- كيفَ أضعتها؟ معقول؟ أينَ اختفت منكِ.

- عـلى السـفح القريـب مـن الطريقِ المعبّد، أرجـوكَ ابحث عنها يـا نعيم، أنا خائفةٌ من أن تفترسـها الوحوش، والشـمسُ توشـكُ على الغروب.

- حسناً، لا تقلقي.

حـاولَ هـاني أن يـصرخَ مُنبهاً الرجـلَ إلى مكانهِ، ولكن صوتـهُ كانَ ضعيفاً ربما مـن التعـب والإجهـاد، ثـم زحـفَ يفتـحُ البـابَ الآخـر محـاولاً أن يضـعَ رجلـهُ على مـكانٍ ثابت ففشـلَ أيضاً.

شـعرَ بالـبرد، وعـرفَ أنّـهُ مقبـل عـلى ليلـةٍ صعبـة، فأغلـق أبـوابَ السـيارة وجلـسَ ينتظـرُ أن يقـتربَ المدعـو نعيـم من مكانـهِ، وصلهُ صـوتُ خوارٍ، عـرفَ أنّها البقـرة المفقـودة التـي كانـوا يبحثـونَ عنهـا، وصلـهُ صـوتُ المـرأةِ الصارخ:

- نعيم، لا تتعب نفسكَ، عثرتُ عليها.

- لا بأس، أتريدين إيصالكِ للقرية؟

- لا، لا داعي، سأتدبرُ نفسي، هل ستبقى طويلاً هنا؟

- ربما سأنامُ في الكوخ، أريدُ أن أعرفَ اللص الذي يسطو على ثماري.

- لا بأس، وفقك الله.

شـعرَ هـاني بالارتيـاح قليـلاً، فعلى الأقل سـيكونُ هناكَ إنسـانٌ سـيقضي معهُ الليـل في المنطقـة، ربمـا نجـحَ في لفـتِ انتباههِ إلى مـكان وجودهِ.

تذكّـرَ الزمـور والأضـواء، يمكنهُ لفت الانتبـاهِ إليهِ، فضغطَ عـلى الزمور أمامهُ، فلـم يسـتجب لـه، وأشـعلَ المصابيـح فلـم يسـتجب لـه سـوى مصبـاح الإشـارات العاليـة والمخفّضة.

فبـدأ يشـعلها بالتنـاوب علّهـا تلفـت انتبـاه أحدهـم، ولكـن دونَ نتيجـة، فتوقـفَ عـن ذلـك، مـن خوفـهِ أن تنفـذَ الطاقـة مـن البطاريـة.

شـعر بالجـوعِ يقـرصُ معدتـه، وعـرفَ أن العـذاب والضنى قـد يميتانه، إن لم يعـثر عليـهِ أحـد. فتـحَ زجاجَ النافـذة وأخذَ يـصرخ، وينادي ذلك الرجـل نعيم حتى

تعب، ثم توقّفَ وهو يشعرُ بالدموع تطفرُ من عينيه.

خيّمَ الظلامُ بالتدريج، وبدأت أصواتُ الوحوش تصلهُ، وشعرَ أنّها كثيرةُ العدد، تبحثُ عن فرائسها في هذا الليل المظلم.

غفا يائساً، ولم يصحُ إلّا على الشجرةِ تهتزُّ بقوّةٍ، وحينَ فتحَ زجاج النافذة سمعَ زمجرة أكثر من وحش، أشعلَ أنوارَ السيارة وحاولَ أن يشغّلَ المحرك.

ثم توقفَ عن المحاولة، وأطفأ أنوارَ السيارة، فلم يسمع الزمجرة من جديد، كانت حركتهُ تلكَ كما يبدو كافيةً لإبعاد الوحوش عن الشجرة.

ظلَّ مستيقظاً يفكّرُ بوضعهِ الغريب، وخُيّلَ إليهِ أنّهُ يسمعُ صوتَ نقراتٍ على سطحِ السيارة، ازدادَ هذا الصوتُ وأصبحَ مصحوباً بالرعد، والبرق يضيءُ المكان في لمحاتٍ متتالية.

أخذَ المطر ينهمرُ فوقَ السيارة، وشعرَ بالبرودة تتسلّل إلى عظامهِ وازدادَ إحساسهُ بالوحشةِ والرعب.

(2)

كانت مملكة عامرة

ورغـمَ صعوبـةِ الوضـع، وإصابتـهِ بجـروحٍ، فإنّـهُ استسـلمَ لمصـيرِه، منتظـراً الفـرج وسـطَ هطـولِ الأمطـارِ الغزيـرة المصحوبـةِ بالـبرق والرعـد. ويـزدادُ رعبـهُ وخوفـهُ، ويشـعرُ فجـأةً أن شـيئاً يحـدثُ لـهُ، فالشـجرةُ تهتـزُّ متحركـةً، كأنّهـا تـئنُّ تحـتَ ثقـل السـيّارة.

ثـمّ توقّـفَ الاهتـزاز، فتـحَ زر المذيـاع فانبعـثَ صـوتُ المذيع يعلـن عن آخرِ الأخبار:

«ازدادَ عـدد ضحايـا العاصفـة الرعديّـة التـي أصابـت المنطقـة الوسـطى، ويمكـن أن تسـتمرّ لعـدّةِ سـاعاتٍ أخـرى».

«ويقـومُ رجـالُ الشرطـة والدفـاع المـدني، بمحاولةِ إنقـاذِ النـاس الذين جرفت السـيولُ بيوتهم ولجـؤوا للمرتفعات».

«وردنـا نبـأ اختفـاء سـيارة مـن نـوع (مـازدا) بلـون عنّـابي مع صاحبهـا وهو أسـتاذ في زيـارة لأقربائـه ثـم اختفـى مع السـيارة».

كأنّه يتحدث عنه؟ معقول؟

«وقد قامَ رجالُ شرطة المناطق بالبحثِ عن السيارة وصاحبها، وما زالوا يبحثون، ويأملون بأن يساعدهم الأهالي بالاتصال السريع على الرقم المعروف لشرطةِ النجدة إن سمعوا خبراً عن السيارةِ ورأوها بشكلٍ ما».

وعلا صوتُ الرعد مصحوباً بالبرق فشعرَ بخوفهِ يزدادُ، وظلَّ صوتُ الرعد يهدرُ متواتراً مصحوباً بلمعانِ البرق الذي كادَ يخطفُ بصرهُ، أغمضَ عينيه وغطّاهما بيديه، وفجأةً دوّى انفجارٌ رهيب قربهُ كأن صاعقةً أصابت الشجرة، السيارة تهتزّ، كأنّها ستسقط، آه.

ومالت السيارة ميلاناً شديداً، ومالَ هاني معها حتى شعرَ أنّهُ ملتصقٌ بالزجاج الأمامي. شعرَ بآلامٍ في ظهرِه، ونظرَ إلى الخارج، كان هناكَ شيءٌ يشتعل، يبدو أن الصاعقة أصابت شجرة مجاورة، وليسَ الشجرة التي تربضُ فوقها السيارة.

كانَ في وضعٍ صعب من المستحيل عليهِ الصمود طويلاً، والمطرُ يسقطُ بعد أن انقطع صوتُ الرعد، وكانَ ضوء اللهب يريه المنطقة التي يُطلّ عليها، وهو معلّقٌ في سيارةٍ معلّقة بدورها، وتوشكُ على السقوط في الهاوية.

رغم البرودة التي تسلّلت إليه، فقد كان سعيدَ الحظ من أن السيارة ما زالت مغلقة، لم ينكسر أي من زجاجِ نوافذها أو الزجاجين الخلفي والأمامي.

ازدادت معاناته مع وضعه المائل الجديد، ثم أخذَ يشعر بالخدر يتسربُ إليهِ فقاومَ هذا الإحساس مقاومةً شديدة، وخُيّل إليهِ أن أصواتَ الزمجرة عادت إليه، وصلتهُ ممزوجةً بصوتِ الهواء العاصف والمطر، ولم يتمكن من متابعة

مقاومتهِ على الضنى والألم والجوع، فسقطَ فاقداً وعيه من جديد.

* * *

حينَ صحا بعد زمنٍ لم يستطع تقديرهُ، رأى نفسهُ وسطَ مكانٍ شبهِ مُضاء يتمددُ على مصطبةٍ حجريةٍ في كهف، وسمعَ سُعالاً، ورأى كهلاً يرتدي عباءةً طويلةً ويعتمرُ كوفيةً لفّها حولَ رأسهِ، وفي وسطِ وجههِ شاربٌ كثيف يختلط فيه البياض بالسواد.

كانت خلفهُ صبيّة ترتدي لباساً بزي قديم غير مألوفٍ في هذا الزمن كانت تبتسمُ موجّهةً نظراتها نحوهُ، قالَ الكهل:

- الحمد لله تبدو بخير، الفضلُ يعودُ لزهرة ابنتي هي التي عالجت جروحكَ وأعادت إليكَ قواك.

ثم تابعَ يقول:

- أتشعرُ بالجوع؟

- آه، أنا لم أستوعب بعد أينَ أنا؛ ومن أنتَ أيّها الرجل الطيب؟ وكيف حدث ووصلت إلى هنا؟

- أنتَ بخير الآن، هذا هو المهم.

- وماذا حدثَ لسيارتي؟ وكيف تمكنت من دخولها وهي معلّقة؟

- معلّقة؟ لم تكن معلقة حين وصلنا، كانت تغوص في مستنقع المياه المتجمّعة من المنحدرات.

قالت زهرة:

- سقطت سيارتكَ في الماء وتمكّنتُ بمساعدة أبي من سحبكَ قبلَ أن تغرق.

بصعوبةٍ استوعبَ وضعهُ الجديد، والصبيّة تدورُ حولهُ تسوّي من وضعهِ الجديد، وهي تتحدّثُ بلغةٍ فُصحى سليمة.

- كنتَ مُصاباً بعدة جروحٍ وكدمات، وكانَ الدمُ متخثراً جامداً، بصعوبةٍ نظّفتُ الجروح ووضعتُ عليها المراهم، كيفَ حدثَ وسقطت؟

- انزلقت بي السيارة وسطَ هذا المطر الغزير فسقطتُ في الهاوية، تدحرجت لمرّات عدّة. ثم سقطتُ على شجرةٍ حملتني طويلاً.

- اعتقدنا أن نزفاً داخلياً حدثَ في دماغك، ولكن الحمد الله، كُتبت لكَ حياة جديدة.

- قضيتُ كلّ تلكَ الأيام هنا؟ في هذا الكهف؟

- نعم، إنّهُ كهفٌ واسع، لهُ منفذٌ على المدينة القديمة.

- وتقيمان هنا، أنتَ وزهرة؟

- نعم يا بُنيّ، ولسنا وحيدين، للكهفِ مداخل وسراديب وتجاويف كثيرة، ويقطنُ فيهِ أناسٌ غيرنا.

- لماذا ليسَ في القرية؟ لماذا هنا؟ ألا تملكونَ بيوتاً.

تنهّدَ الكهلُ بحرقةٍ:

- منذُ أن أصابَ الوباء المدينة، ونحنُ نسكنُ هنا، مع بعضِ الناسِ الآخرين، إنّهم قِلّة، ولكنّهم يحافظونُ على ترابطهم وعلاقاتهم.

- المدينة خاليةٌ لا يسكنُ فيها أحد؟

- نعم، هجرها من لم يصبْ من أهلها بالوباء، ولجؤوا إلى هنا.

- كأنني في عالمٍ آخر، لا أفهمُ شيئاً مما تقول، لم أسمع من قبلِ بمدينةٍ

أصابها الوباء وهجرها أهلها في هذهِ المنطقة، أيمكن أن تشرحَ لي شيئاً مما تقولُ يا عم؟ من أنتم؟ وإلى أي عالمٍ تنتمون؟ ولماذا لا تسكنون القرى المجاورة؟ ولماذا هذا الكهف بالذات؟ ألا يختلطُ بكم أهالي القرى؟ حتى أزياؤكم التي ترتدونها تبدو مختلفةً عن الأزياء الحاليّة، أرجوكَ اشرح لي قليلاً، لستُ أفهم شيئاً.

علّقت الصبيّة:

- قلتُ لكَ يا أبي، سيكونُ ما فعلناهُ مشكلةً بالنسبةِ إليه.

- ولكني اضطررتُ لجلبهِ إلى هنا حتى يستيقظَ من سُباتهِ، أشفقتُ أن أضعهُ خارجاً، فتسوءُ حالتهُ، والبردُ شديدٌ في الخارج.

- وماذا ستفعلُ الآن مع هذهِ الأسئلة الكثيرة التي تدورُ في ذهنهِ؟

- يجبُ أن أشرحَ لهُ شيئاً يقنعهُ، ليسَ شاباً سهلاً كما أرى.

- كما تشاءُ يا أبي.

سمعَ الحديث ولم يستوعبهُ كثيراً، شعرَ بالإعياء والتعب الشديد وتابعهما يتحدّثان دونَ أن يفهمَ مغزى الحديث.

قدمت لهُ زهرة شراباً ساخناً، من مغلي الأعشاب، أعطاهُ بعضَ القوّة، وجلسَ الكهلُ إلى جانبهِ.

- اسمع يا بُنيّ، تبدو شاباً طيباً، وحكايتنا تبدو حكايةً غيرَ مألوفةٍ، ولكن لا أرى مناصاً من قصّها عليكَ، سنخرجُ إلى المدينة القديمة وسأحكي لكَ كل ما ترغبُ في سماعهِ، تفضّل.

- البردُ شديدٌ في الخارج؟

- نعم، وهذه العباءة ستدفئكَ جيداً.

أوقفتهُ زهرة:

- خذ العصا يا أبي، قد تحتاجها.

- معك حق.

* * *

كانت المصابيح خافتة الضوء، تنتشرُ في الممرات، والكهل يتقدّمُ هاني، وبعدَ دقائق عدّة، وصلا إلى فتحة واسعة تطلّ على مدينة تنفرش بيوتها على سفح الجبل، وفي الوادي. كان من الواضح أنّها ما زالت تملك بعض التقسيمات في الأبنية والزوايا تدلّ على أنّها كانت في زمن بعيد مدينة كبيرة غنيّة بالفن والأثر المعماري المتميّز.

- إنّها (إيمافا) حيث تجتمعُ القوافل من كلّ الاتجاهات، ويتبادلُ فيها التجار السلع والبضائع، وتجري الأموالُ بكثرةٍ بين أيدي أهلها، كانَ مَلكُها، رجلاً حكيماً، تمتدُّ مملكتهُ إلى ما وراءِ الجبل وتشملُ عدّة مدنٍ أصغرَ من (إيمافا)، وعكّرَ صفو استقرار مدينتنا ومملكتنا وصولُ عدد من الفرسان إلى المدينة، يحملونَ رسالةً عاجلة للملك.

* * *

- سيستقبلكم جلالة الملكِ حالاً.

- لا أرى الكثيرَ من الحرس على أبوابِ القصر أو في ردهاته، ألا يخافُ ملككم على نفسهِ من الاغتيال؟

- كلُ شعبهِ يحبّهُ يا سيدي، إنّهُ يتجوّلُ بينَ الناس في العطلات والمناسبات ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ويستقبلُ المظلومين وينصفهم.

- خذوا خيولهم إلى الإسطبلات وأطعموها جيّداً.

- لا، لا، أرجوكَ ليسَ لدينا وقت، سنسلمُ الرسالةَ ونستلمُ الجوابَ، ثم ننطلقُ حالاً.

- كما تشاؤون.

ودخلوا إلى الملك وسلّموهُ رسالةَ إمبراطورهم كما سموهُ، وقرأ الملكُ رسالةً تطلبُ منهُ الانصياع لقوة الإمبراطور وتسليم المدينة والمدن المجاورة وكلّ أراضي المملكة للإمبراطور، حيثُ سيصبحُ ممثلاً لهُ في المملكة ويتبعُ أوامرهُ وتعليماته.

- ولا ريبَ أن الملكَ قد غضبَ من هذهِ الرسالة ورفضها.

فكّر جيّداً، وذلكَ الفارس ينتظرُ جوابهُ، ثم قالَ لهُ:

«وإذا سلّمتُ مملكتي، هل ستسلمُ من الخراب؟ أم أن جنودَ الإمبراطور سينهبونَ خيراتها ويعتدون على نسائها؟».

أجابهُ رسولُ الإمبراطور:

- «هذا أمرٌ لا يخصّكَ، مولاي الإمبراطور هو الذي يتصرّفُ في أي شأنٍ من الشؤون».

قالَ الملكُ بعدَ فترةِ صمت:

- حسناً، ستقيمونَ بيننا ثلاثة أيام، ونسلمكم جوابَ الرسالة.

- أوامري أن أعودَ بالجواب دونَ أن أريحَ حصاني.

- إلى هذه الدرجة هم متعجلونَ بالجواب؟

قالَ بفظاظةٍ:

- نعم، هه، قُلْ لي ما هو جوابكَ؟

غضبَ الملكُ غضباً شديداً، فبادرَ أحدُ المستشارين يقول:

- تكلّم مع مولاي باحترامٍ أيّها الفارس وإلا غضبنا جميعاً.

أجابَ بلا مبالاةٍ:

- هو ليسَ ملكي ولا يعنيني.

ثم التفتَ من جديدٍ صوبَ الملكِ يقولُ بإصرارٍ:

- لم تقلْ لي ما هو جوابكَ أيها الملكُ؟

نظرَ إليهِ الملكُ وقد استردَّ هدوءهُ من سلوكهِ الفج:

- حسناً اشرب ورفاقَكَ هذا العصير من خلاصةِ الفواكهِ الطبيعية، سنكتبُ الجوابَ لمولاكَ حالاً.

- لا أستطيع.

- لماذا؟ هل أمروكم أن لا تشربوا من مائنا أو لا تأكلوا من طعامنا؟

- لا، ولكن!

- لا تتردد، من شربِ العصير، سينعشكَ أنتَ ورفاقكَ.

وحتى يزيدَ الملكُ من طمأنةِ الفارس، صبّوا لهُ كأساً من العصيرِ فشربهُ الملك وشربَ منهُ الوزراء والخاصة من الحاشية حولهُ، وهذا ما دعاهُ لأن يشربَ ورفاقهُ بنهمٍ بالغٍ كأنّ عطشهم كانَ شديداً، وبعدَ لحظاتٍ حصلَ تغيرٌ في سلوكهم، كانَ تغيّراً فجائياً.

- أيها الملكُ سأصدقكَ القول، جنودُ الإمبراطور يستعدونَ لمهاجمة المملكة حتى ولو وافقتم على الصُلح وتسليم المملكة لهم، سيكتسحونَ الأرضَ والناس ويستولون على الثروات.

- وهذهِ الرسالة؟

- إنّها لا تعني شيئاً لنا، وصلتنا أخبارٌ أن جيشكم غير جاهزٍ للقتال وأن الأمانَ في بلادكم قد جعلَ الناس يتكاسلون عن الاستعداد لمجابهةِ أي خطرٍ، لن يكلفنا غزوكم الكثير، إنّهُ أشبه بنزهةٍ لجنودنا.

- آه، فهمت.

- يحيط بإمبراطورنا مجموعةٌ من المخططين، الشرسين، الذين لا يأبهون لقيمِ الإنسان، يبغونَ السيطرة على العالم وفقَ عقائد يستقونها من الأوراقِ الصفراء لأجدادهم.

- وما هي قوّةُ جيوشكم؟

- إنّها مجهزةٌ بالقاذفات وراجمات اللهب، ومطلقات النبال التي تطلقُ عشراتِ الأسهم السامة معاً، وبعربات كاسحةٍ تجرها الفيلةُ والثيران الضخمة التي تدكّ الأسوار والأبواب.

جمعَ الملكُ مستشاريهِ في القاعةِ المجاورة:

- أوشكَ مفعولُ الشراب على الانتهاء، ما سيكون جوابنا؟

قالَ أحدهم:

- رفضُ شروطهم ومقاومتهم.

- ألم تفهم ما قالهُ؟

- إذن بماذا ستجيبُ يا مولاي؟

هزَّ رأسهُ شارداً:

- سنرى..

عـادوا إلى قاعـةِ الاسـتقبال، نظـرَ إليهـم، كانـوا يهـزّون رؤوسـهم وقـد ظهـرَ أن مـا حـواهُ الـشراب قـد انتهـى مفعولـهُ، مـادة تضاف للـشراب تجعلُ مـن يشربهُ صادقـاً صـافي النيّـة لمـدة قصـيرة، وحـينَ يـزولُ مفعولهـا لا يتذكر شـيئاً.

هزَّ الفارس رأسهُ قليلاً ثم عادَ يسأل:

– هه؟ ما هو جوابكم على رسالةِ مولانا الإمبراطور؟

ردَّ الملكُ:

- قُـل لـهُ إنّنـا قبلنـا شروطـهُ، وليمهلنـا سـبعةَ أيـام، لنجّهـزَ المُـدنَ والأقاليـم لاسـتقبالهِ في مملكتنـا بشـكلٍ لائـق، بعـدَ أن نجمـع لهُ المـال والجواهـر والجواري.

- حسناً، سأبلغُ مولاي بذلك.

أعطى الملكُ أمراً لقائد حرس التشريفات:

- رافقوا فرسان جلالةِ الإمبراطور حتى أبوابِ المدينة.

كانَ الملـكُ يُفكّـر بخطـةٍ مـا، وقـد شـعرَ بوطـأةِ الخطـرِ عـلى مملكتـهِ، أحـضرَ في تلـكَ الليلـة كبـارَ قادتـهِ، أمـير البحـر وأمـير البرّ وأمـير المغاويـر، وعـرضَ عليهـم الأخطـارَ المحدقـة بالمملكـة، فتنافسـوا في خطبهـم حـولَ قـوّةِ فرقهـم، وقدرتهـا عـلى قهـرِ جيـوشِ الإمبراطـور، فأعطاهـم توجيهاته للاسـتعداد واسـتنفار الجنـود بأقـصى قـوّةٍ لـدرءِ الخطـر، فخرجـوا وهـم ينفخـون أوداجهم غـروراً، وفي تلـكَ الليلـة اسـتدعى الملـكُ جـدّي، وكانَ أحـدَ مستشـاريهِ المقرّبين.

- وماذا سنفعلُ يا ماجد؟ الوضعُ شديدُ الخطورة.

- ألا تعتقدُ أن جيوشنا قادرة على التصدي لهم؟

قالَ الملكُ بمرارةٍ:

- قابلتُ مغرورين لم يستشعروا الخطر، بل ألقوا خطبهم أمامي، يتبجحونَ بقدراتهم وطاقاتهم القتالية.

- جيشنا دخلَ فيه الكسل، وتسلّلت إليهِ روحُ التخاذل والفساد، معك حق .

- لم أتخيل في حياتي أن يصلَ الخطر على شعبي لهذهِ الدرجة.

- أعتقدُ يا مولاي أنّكَ تتحمّلُ جزءاً كبيراً من المسؤولية، كانَ يجبُ أن تنتبهَ لما يحدثُ بين قادةِ جيوشك، وأفراد قطعاتك المسلحة، وهي درعُ الوطن، الحامية الحقيقية لهُ.

هزَّ الملكُ رأسهُ موافقاً:

- معكَ حق ولكن سبقَ السيفُ العذل.

شعرَ جدي بالمعاناة التي يعانيها الملكُ فأشفقَ عليهِ وسألهُ:

- عرفتَ شيئاً من مخططات العدو؟ وقرأتَ بعضَ ملامحِ قوّةِ جيوشهِ؟

- آه، نعم، عصيركَ السحري، حلَّ عُقدة لسانِ فرسان الإمبراطور لبعضِ الوقت، وكانت إجاباتهم مفيدة لنا، تُظهر مواطنَ القوّة والضعف عندهم.

- مولاي الملك، وسطَ هذا التكاسل والتبجح عند قادتكَ، أنا أخافُ أن تحدثَ أشياء خطيرة.

- ماذا تقصد يا ماجد؟

- قد ينفذُ العدو إليهم ويطلعُ على خططهم إن رسمت وإياهم خططاً ما، ثم إن هذا التبجح، قد يزيدُ من ردّةِ فِعل العدو على إعلاناتهم الفارغة بالقوّة والتصدّي لأقوى الجيوش.

- معكَ حق، كيف فاتتني هذهِ الفكرة؟ سأرسلُ في طلبهم من جديد وأجعلهم يبتعدونَ عن تنفيذِ أوامر الاستنفار حتى إشعارٍ آخر.

- ضعاف النفوس هم الذين يشكلونَ نقاط الضعف عندنا.

- فهمتُ ما تقصد، يجبُ أن نعالجَ كلّ هذهِ المواضيع جميعها.

بسطَ الملكُ أمامَ جدي مخططاً لمدنِ وقرى المملكة وحدودها المرسومة بدقّة، ثم قالَ مهموماً:

- يجب أن نتدارسهُ جيّداً.

وحكى الكهلُ لهاني كيفَ شرحَ الملكُ لجدّهِ ماجد رؤيته للوضع، وطلبَ مشورتهُ فهو يثقُ فيهِ ثقةً مطلقة عن خبرةٍ وتجربة، فلقد قَدّمَ جدّي ماجد خدمات جُلّى للمملكة في أوقاتٍ حرجة، ببراعته في إدارة الأزمات.

واتفقا على خطةٍ، متكاملة قضوا الليلَ بطولهِ يدرسونها من الجوانب كافة، وأحضرَ الملكُ قادتهُ في الصباح.

- اسمعوا أيها القادة، بعثتُ لكم أمس قائدَ حرسي الخاص لأبلغكم بأن لا تستنفروا جيوشكم، يجب أن تجهزوا الجيوش لاستقبال الإمبراطور الذي سيكونُ على رأسِ الجيش الغازي، نحنُ أضعفُ من أن نقاومهم.

قالَ أميرُ البحر:

- لكنَ أسطولنا البحري قادر على المواجهةِ والانتصار.

- يملكونَ قطعاً أكبرَ من قطعنا البحرية وهي مسلحة بالمنجنيق الذي يقذفُ النار.

- سنرسلُ فرق الغواصين لتخريب سفنهم.

- إنّهم مستعدون لمثل هذا الاحتمال، لذلك لا داعي للمقامرة بقطعنا البحرية ومقاتلينا، سنقبل عرض السلام الذي عرضوه.

قالَ أميرُ البرّ:

- وجيوشُ البرّ الزاحفة التي تنتظرُ أوامركم؟

- جهزوها لتقدِّمَ عروضاً للإمبراطور القادم، سيصبحُ هو السيد الجديد.

- وكتائبنا المدرعة بالعربات والتروس، والنبال المحمولة بعرباتِ القناصة.

- سيرتاحون من المجابهة، أسلحةُ جيوشِ الإمبراطور أشدّ فتكاً.

قالَ أميرُ المغاوير:

- والمغاوير الذين يضعونَ الموتَ نُصبَ أعينهم ماذا سأقولُ لهم؟

- سيقدمونَ عروضاً أمامَ الإمبراطور، ويجب أن تكونَ عروضاً مقبولة، فليظهروا عضلاتهم وقواهم البدنيّة في عروضهم.

- نحنُ ننتظرُ زيارةً من جلالتكم للإشرافِ على ذلك.

- سأزورُ فرقكم الثلاث لأطلعَ عن كثب على استعداداتكم.

- أمرُ مولاي.

- والآن لتستعدوا وفرقكم لعروضِ استقبالِ الإمبراطور.

- أمرُ مولاي.

غادرَ الجميعُ القاعة، قالَ ماجد بعد ذهابهم:

- حسناً فعلتَ يا مولاي، لن يبخلَ الجواسيس بنقلِ هذهِ الأخبار المفرحة للإمبراطور، التي تُنبئ عن صدق استسلامنا له.

تنهّدَ الملكُ ثم قالَ كأنّهُ يتابعُ حديثاً سابقاً:

- ما اسمُ ذلكَ الشاب قلتَ لي؟

- إنّـهُ سـعدون الطيـب كـما يُطلقُ عليـهِ الناس، سـيحضرُ بعدَ قليـلٍ لمقابلتكم، ولكـن يبـدو عليـكَ الإرهاق يـا مـولاي، أنتَ بحاجـةٍ للنوم.

- وأنتَ بحاجةٍ للنومِ أيضاً، ولكن كيفَ ننامُ وبلدنا مهدّدة بالاستباحة؟

- معكَ حق يا مولاي.

ودخلَ أحدُ الحرسِ وهو ينحني للملك:

- في البابِ رجلٌ يقولُ إن اسمهُ سعدون الطيب يا مولاي.

- أدخلهُ إلى هنا.

- في الحال يا مولاي.

دخـلَ رجـلٌ طويلُ القامـة عريض المنكبين تبـدو عليهِ الطيبـة، وعيناهُ تبرقان بصفاء:

- السلامُ على مولانا الملك.

- أهلاً بك يا سعدون، نحنُ بانتظارك.

ثم همسَ في أذنه:

- انتبـه يـا سـعدون سـنتحدثُ إليـكَ بسرّيـةٍ مُطلقة عـن أمرٍ شـديدِ الأهمية لا يعـرفُ بـهِ سـوى أنـا وأنـت والحكيـم ماجـد، تظاهـر بأنّـكَ غـير مبالٍ كثـيراً، على هـذه السرّيـة يتوقـفُ مسـتقبلُ المملكة.

- أمعقولٌ أن تضعَ بين يديّ مستقبلَ المملكة يا مولاي؟

- نعـم، أنـتَ مواطـن مـن المملكـة، وأكـثر انتـماءً لهـا مـن الآخريـن، عرفـتُ عنـكَ الكثـير، وعـن شـجاعتكَ وشـهامتكَ.

- هذا شرفٌ كبيرٌ لي.

وحكى الملك لسعدون عن خطتهِ وكانت تقضي بأن يجمع الشبان الشجعان الأقوياء، ممّن يمكن الوثوق بهم جيداً، لتشكيلِ فرقةٍ سريةٍ للقيامِ بأعباءٍ جسيمة قد تقوضُ غرورَ العدو وصلفه.

كانَ على سعدون البحثَ عن أولئكَ الشبان بأسرعِ وقتٍ، وتشكيل تلكَ الفرقة، وأُنيط أمرُ متابعتها للحكيم ماجد.

لم يكن ذلكَ عسيراً على سعدون، فلقد كانَ لهُ أصدقاء في أماكنَ عديدة، وكانوا يماثلونهُ شجاعةً وجرأةً وطيبة، تربوا كلهم على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين، وبعضهم ارتحلَ في طلبِ الرزق في بلدان بعيدة، وعادَ ليستقرّ في بلده بعدما ذاعَ صيتُ الملكِ وحكمتهُ وعدلهُ.

وحكى الكهلُ ما فعله جدّهُ الذي تابعَ جولات سعدون وتشكيلهُ لفرقةٍ مقاتلةٍ سريةٍ، صُممت على استقبالِ المحتل استقبالاً صاعقاً كما سمّاه سعدون.

* * *

«كانَ جدّي ماجد يتابعُ بدقّةٍ ما يخطّطُ لهُ سعدون وفرقتهُ، ورأى من شجاعة أولئكَ الرجال وتعاونهم مع بعضهم شيئاً نادر المثال، وهذا ما أثلجَ صدرهُ».

سألهُ هاني:

- وماذا حدث؟ هل استقبلت المملكة الإمبراطور كما أشاعَ الملك؟

- نعم، وجهزت الرايات والأعلام والزينات في كلِ مكان، وتجمّعَ الناس على الطرقاتِ يرقبونَ وصولَ الإمبراطور بجيشهِ الضخم وعرباتهِ المدرعة.

- وتمَ الأمرُ بهدوءٍ وسلام؟

- كانَ الإمبراطور وبعضُ حاشيتهِ من الفرسان الشرسين الذين يخططون لهُ ليسيطرَ على العالم، يسيرُ الهوينى، تحيطُ بهِ الدروع، وحولهُ تسيرُ قاذفاتُ اللهب وراجماتُ الحجارة الساخنة، ومطلقاتُ النبال بأسهمها السامة، والعربات الكاسحة التي تجرها الفيلة.

- وأينَ لسعدون ورفاقهِ أن يصنعوا شيئاً مع هذا الجيش العرمرم؟

- معكَ حق، كان الوضعُ معقداً، وخاصةً وأن الملكَ لم ينشر جيوشهُ بشكلٍ قتالي. كانت فرقاً استعراضية بألبستها المزركشة، متأهبةً لتحيةِ الإمبراطور وتقديم الطاعة له، وحدثَ أمرٌ غيرُ متوقع. فحينَ وصلَ الإمبراطور ساحةَ القصر الملكي، وتقدّمَ منهُ الملكُ ليؤدي لهُ الطاعة، اندفعَ قادةُ الفرق إلى الإمبراطور ينحنونَ أمامهُ ويعلنونَ ولاءهم وولاء قواتهم للإمبراطور، ودهشةُ الملك وفجيعته، وظنَ الملكُ أن في الأمر شيئاً. إن أولئك القادة ترجموا رغباتهِ لإعلانٍ للإمبراطور، ولكن الإمبراطور استغلَّ الوضع جيّداً.

- وتتخلونَ عن ولائكم للملك؟

- ولاؤنا لكم يا مولاي قبلَ ولائنا لهُ.

- نحن أتباعكم الآن.

- جيوشنا القوية، جاهزةٌ لتنضمَّ إلى جيوشك الجبارة.

- ما دمتم بهذا الولاء، فبلادكم أصبحت لي، ترزح تحتَ قدميّ، وملككم سيصبحُ خادمي الخاص.

قالَ جدّي مفجوعاً:

- أسمعتَ يا مولاي الملك؟ أمعقولٌ ما يجري؟ ماذا نفعلُ الآن؟

هـزَ الملـكُ رأسـهُ كأنّهُ كانَ يتوقّع مـا يحدثُ رغمَ بشـاعتهِ، وانطلقَ المهرّجون إلى الميـدان بأشـكالهم المضحكـة، واقـتربَ رجـلٌ طويـلُ القامـة عريـض المنكبـين يرتـدي لبـاسَ المهرجـين مـن الإمبراطـور، وهـو يقـومُ بحـركاتٍ مضحكة:

- أيّهـا الإمبراطـور العظيـم، نحـنُ مهرجـو المملكـة سـنقدّمُ عرضـاً خاصـاً لجلالتكـم.

أوقفهم أحدُ أتباعه:

- ابتعدوا من هنا، جلالة مولانا المعظم لا يرغب بذلك.

قالَ الإمبراطور مُستهجناً ما يجري:

- ولم لا؟ دعنا نتسلى.

عادَ المهرج الضخم يقولُ وهو ينحني للإمبراطور:

- جهّزنـا مقاعدكـم في السـاحة، وسـنقدّمُ عروضنا المسـلية التي سـتضحككم وتريحكـم مـن عناء السـفر يـا مـولاي الإمبراطور.

وجهَ الإمبراطور كلامهُ للملك:

- حسـناً، وأنـتَ يـا خادمـي الجديـد، رافقنـي وقـادة فيالقـكَ السـابقين إلى المـكان المخصـص لي ولحاشـيتي في السـاحة.

قالَ الملكُ مُرتبكاً:

- حسناً يا مولاي، تفضل.

قلبَ شفتيهِ ساخراً:

- اعتقـدتُ أننـي سـأدخلُ بلادكم حرباً، وقد سـمعتُ من قبل عن جيوشـكم

وثـراءِ بلادكـم، ألا تدافعونَ عـن أمنكم على الأقل؟

ردَّ قائدُ المغاوير منحنياً بذلٍّ:

- أنتَ أمننا يا مولاي الإمبراطور.

شـعرَ الملـكُ بالقـرف مـن هـؤلاء القادة الذيـن انعدمـت فيهم المـروءة ونبرةُ العـز، الخونـة أصبحـوا يتسـابقونَ لتقديـمِ ولائهـم للغـازي، آه، كلُ المسـؤولية تقعُ عليـه، كيـفَ لم يكتشـفهم مـن قبل؟

* * *

شدّهُ الكهل من يده:

- تعـالَ يـا هـاني، السـاحةُ التـي جلـسَ فيهـا الإمبراطـور هـي هذه السـاحة، والتـمَّ فرسـانهُ وحاشـيتهُ حولـهُ، وبـدأ سـعدون حفلـةً تهريجيـة، ورغـمَ كل القادة والحـراس والقـوات المدرعـة بأسـلحتها، نفـذ سـعدون وبعـض رفاقـه إلى أمـام الإمبراطـور، وقدمـوا فقراتهـم التهريجيـة التـي أضحكـت الإمبراطـور حتـى دمعت عينـاه، وفجـأةً عـلا الـصُراخ وجـأرت الفيلـةُ الهاربة وقـد انفلتت مـن مرابطها على العربـات، واندفعـت هائجـةً والدماءُ تسـيلُ مـن عيونها المفقـودة، وانطلقَ الدخان يغطـي السـاحة، وحـينَ انقشـعَ، كان الإمبراطـور وحاشـيته قد اختفوا وسـطَ ذهولِ الجنود.

سألهُ هاني مستغرباً:

- ما الذي حدث؟

- حـاولَ سـعدون ورفاقهُ، الذين اسـتغلوا لباسَ المهرّجـين لينفلتوا دون رقابة، فبـدؤوا بتنفيـذِ المخطـط الذي رسـموه، وشـخصت الأبصار إلى رجلٍ يرتـدي الدروع

ظهـرَ فجـأةً فـوق أحدِ الأعمـدة وصرخَ يخاطـبُ الجميع بصوتهِ الجهـوري الرنان.

- إمبراطوركـم وقادتكـم بـين أيدينا، انسـحبوا من بلادنـا، وإلّا قتلناهم واحداً واحداً.

وعـمَّ الهـرجُ بين جنـودِ الإمبراطور وقـد أُلقيت بعضُ جثـث قادتهم مذبوحةً مضرجـةً بدمائهـا، وأعطى الملـكُ أمراً لجدّي:

- اقبض على هؤلاء الخونة يا ماجد.

وألقـى جـدّي القبضَ على أمراء البحـر والبرّ والمغاوير الذين وجدوا أنفسـهم تحـتَ أقدامِ الملـكِ يبكونَ تائبين:

- مـولاي الملـك، اعـف عنـا، اعتقدنـا أن رغبتـكَ هـي أن نُظهـرَ ولاءنـا للإمبراطـور، لم نكـن نعـي. نحـنُ خدمـك يـا مـولاي، جنـودكَ المخلصـون.

ولكنَ جدي صرخَ بالرجال:

- كتفوهم بسرعة، وليُلقوا في السجن حتى ينظرَ جلالة الملكِ بأمرهم.

وكالسـحرِ بـدأت الجيـوش تنسـحبُ، وعـيّنَ الملـكُ سـعدون الطيـب ورفاقـهُ في وظائـفَ متفرقـةٍ، بهـدفِ إعـادة ترميـم المملكة، وإعـادةِ تقوية جيوشـها ونفض الكسـل والقضـاء عـلى الفسـاد والتسـيب في كل مكان.

- وماذا حدثَ للإمبراطور وحاشيته؟

- حدثت مفاجآت كثيرة في بلادنا في ذلك الزمن.

(3)

كهف الزمن الغامض

كان يبدو على الكهلِ التعب والشرود، قالَ لهاني:

- لنعد إلى الكهفِ أشعرُ بالتعب.

قالَ هاني:

- لا بأس، يمكنكَ تأجيل إكمال الحكاية إلى وقتٍ آخر.

هزَّ رأسهُ:

- لا يا بُنيّ، سأرتاحُ قليلاً ثم أكملُ الحكاية، يجب أن أكملها.

استقبلتهما زهرة، سألت هاني:

- هل أعجبتكَ المدينة؟

قالَ الأب:

- لم يرَ الكثيرَ منها بعد.

ثم أكملَ قائلاً:

- قَدّمي لنا الشاي يا زهرة، فالأحداثُ المقبلة التي سأرويها ستزيدُ من

انفعالي، وقلقي.

- حسناً يا أبي، لحظات وأقدّمُ لكما الشاي.

عادَ يسألهُ:

- هل تعبتَ من روايةِ تلكَ الأحداث؟

- لم أتعب بعد، ولكنها تثيرُ في داخلي أحزاناً أحاولُ كتمانها، بسببِ فظاعةِ الكارثة التي حلّت بنا.

- إلى هذه الدرجة؟

- نعم، فبعدَ أن انسحبت الجيوشُ الغازية من المملكة، أعادَ سعدون الطيب الإمبراطور وحاشيتهُ إلى الحدود، وهم مقيّدونَ بالسلاسل، بعدَ أن همسَ في أذن الإمبراطور جملةً كانَ لها وقعُ الصاعقة عليهِ:

«لقد سلمتَ في هذه المرة، أنتَ وهؤلاء الأشقياء، ولو عدتَ إلينا من جديد سيكون مصيرَكَ مُرعباً، تذكر ذلك دائماً».

- آه يا بني كان ذلك سبباً في ازدياد حقد الإمبراطور على مملكتنا.

- كانَ يجب أن تقتلوهُ، وأشقياؤهُ؟

- لم يرغب الملكُ في أن يقال عن مملكتنا إنها غدرت بالإمبراطور، ولهذا أعطى أوامرهُ بإطلاقهم وتحذيرهم من إعادة الكرّة.

وأحضرت زهرة الشاي ثم عادت إلى داخل الكهف، وعادَ الكهلُ إلى روايةِ الأحداث التي عصفت بالمدنية، وحكى عن المعاناة القاسية التي كانَ يعاني منها الإمبراطور بعدَ أن نشرَ سعدون خبرَ أسرهِ وإذلالهِ.

كانَ من الواضح أنهُ يُعدّ العدّة للانقضاض على المملكة من جديد.

وبعدَ أن وصلت الأخبار من البلاد كافة عن أنَّ الإمبراطور يحشدُ الجيوش من جديد، وهي أكثرُ عُدّة وعدداً من المرة السابقة، اجتمعَ الملكُ مع مستشاريهِ.

- كُنّا نتوقّعُ مثلَ هذا التصرف ممن لا يعرفُ سوى الغدر، وقد ازدادَ حقدهُ علينا للطريقةِ التي مرّغنا بها كبرياءه بالأرض.

قالَ جدّي:

- رغم أنّهُ أقسمَ في الأسر، أن لا يعيدَ الكرّة من جديد، وبشرفهِ الإمبراطوري وعدَ أن يظلَ بعيداً عن التفكير في مهاجمة مملكتنا.

وعلّقَ سعدون:

- كنتُ أتمنّى لو أجدعُ أنفهُ وأقطعُ أذنيه هو وزبانيتهُ.

- لم يكن ذلكَ ملائماً يا سعدون، أنا رجلٌ عندي مبادئ وقيم، وأفترضُ النوايا الحسنة لدى الآخرين، وأعملُ على أساسها.

- السياسة لا تحتاجُ لنوايا حسنة يا مولاي.

- المهم ماذا سنفعل الآن؟ أنا أعرفُ أن سعدوناً لا يستسلمُ بسهولة، ولكن الإمبراطور قد يخبئ لنا مزيداً من خططِ القتل والدمار.

- ونحنُ يجب أن نتهيأ لذلكَ، هذا هو قدرنا.

وأدخلَ الحاجبُ رسولاً من الحدودِ الغربية، كانَ مظهرهُ يدلّ على أنّهُ خرجَ من تحتِ ظلّ الموت، هدَّأهُ الملكُ وأمرَ بتقديمِ الشرابِ المنعش لهُ، ثمَ أشارَ لهُ ليتكلّمَ فاندفعَ يحكي بانفعال وهو يحكي بصوتٍ متهدج:

- لقد هاجمونا يا مولاي، حرقوا قريتنا ودمّروا الزرع والبيوتَ

والمـزارع، قتلـوا النسـاءَ والأطفـال، واحتلـوا مناطـقَ كثـيرة عـلى الحـدود.

- وكيفَ حدثَ ذلك؟

- صحونـا في الليـل عـلى الـصراخ، وسـنابك الخيـل تـدوسُ المـزارعَ والمشـاتل، وتخربها.

البيـوتُ تُقتحـم ويُقـاد الأهـالي إلى السـاحة العامـة، حيـثُ يجـري إعدامهـم والتمثيـلُ بهـم، تمكنـتُ مـن الهـرب بنـاءً عـلى نصيحـةِ الشـيوخ، لأوصـلَ لكـم تلكَ الأخبـار، عانيـتُ كثـيراً حتـى وصلـتُ سـليماً إلى هنـا.

- بدأ اكتساحهُ لمملكتنا قبلَ الوقتِ الذي توقعناه.

- أعدمـوا الكثـيرَ مـن الشـبان والرجـال، والبقيـة وضعوهـم في سـجونهم الميدانيـة داخـلَ معسـكراتهم، النـاسُ يرجونـكَ يا مـولاي أن تسرعَ في إنقـاذِ الباقينَ منهـم وتخلصنـا مـن هـذا الجيـش الحاقـد المتوحـش.

* * *

كانَ هـاني مُتلهفـاً وهـو يسـتمعُ للكهـلِ الـذي بـدا كأنّـهُ يعيـشُ في تلـكَ الأحـداث:

- لم يُضِـع سـعدون وقتـهُ فقـد أرسـلَ بعضـاً مـن رجالـهِ خلـفَ خطـوطِ العـدو لإنهاكـهِ، كـما أرسـلَ فرقتـهُ المقربة إليـهِ للتوغل بـينَ الجنود واسـتطلاعِ خططهـم وخطـط قادتهـم، كـما أرسـلَ ثلاثـةً مـن رجالـهِ للقيـام بعمـلٍ وضـعَ فيـهِ كُلّ ثقتـهِ في كبـحِ جِـماح الغـزاة.

لم يتوقّـف الجيـشُ الغـازي عـن اكتسـاحِ الحـدود وترويـعِ سُـكان القـرى المجـاورة لهـا، وأرسـلَ الإمبراطور جواسيسـهُ للاتصال ببعضِ ضعـاف النفوس، وفعلاً

ممن من أخراق بعض الناس الذين ظنوا أنهم بمجاورته سيسلمون من شره.

- وماذا فعلَ سعدون؟

- خطفَ ابنة الإمبراطور، وأحضرها ليساومَ عليها والدها، ولكنَ الخونة المتعاونين مع الإمبراطور أطلقوا سراحها وهربوها بعدما قتلوا حراسها.

- واستمرَّ الغزاة يكتسحونَ المملكة؟

- نعم، وشكلَ الخونة ضعفاً كبيراً، في تصدّي الناس لهم، كانوا ينشرونَ الإشاعات والأكاذيب عن انتصاراتِ الإمبراطور، وضعفِ مقاتلي سعدون وعدم قدرتهم على التصدي.

- كانَ يجبُ بناء الإنسان جيّداً في المملكة حتى لا تصبحَ النفوس هشّة سهلةً أمامَ الإغراءات، وبالتالي تُصبح الخيانة صعبة، بل ومستحيلة.

- معكَ حق يا بُنيّ، بعدَ سنواتٍ من الاستقرار والأمان والرفاه، وتجميعِ الثروات من قبلِ حاشيةِ الملكِ الفاسدة، لم يلجأ الملكُ إلى عِلاج المشكلة ببترها، بل تهاونَ مع من يحيطُ بهِ من مُنافقين وفاسدين، وهكذا كبرت بذرةُ الخيانة عندَ هؤلاء وقهرت روح المقاومة.

- وماذا حدثَ بعدَ ذلك؟

- تصدّى سعدون ورجالهُ ببطولاتٍ نادرة مع الكثيرِ من جماهيرِ الشعب، في كلِ مكان، للجيوشِ الغازية، وكانَ الملكُ معهم، رغمَ محاولاتِ إبعادهِ عن الخطر، ودخلَ الإمبراطور أخيراً بجيشهِ الضخم، وروّعَ الأهالي بمشانقهِ الكثيرة، وسلّمَ السلطة لمجموعةِ الخونة الذين كانوا من قبل أفراداً مُقرّبين من الملك الذي أصبحَ مطارداً، كانَ الإمبراطور يتلذذُ باحتقارهم وإهانتهم وهم يطرقونَ

رؤوسهم بذلٍ، ويتجبرونَ على بني وطنهم، وشيئاً فشيئاً هجرَ الناسُ البلاد، ولم يبقَ سوى المستسلمين.

- وسعدون الطيب والملكُ وجدكَ ماجد؟

- شاركوا في أعمالِ مقاومةِ المحتل، بكلّ قواهم، في مخابئهم السرية، السراديب والكهوف، والأدغالِ الكثيفة، أطبق سعدون ورجالهُ في أحدِ الأيّام على قصرِ الملكِ القديم الذي يقيمُ فيهِ الإمبراطور، وقتلوا كثيراً من الرجالِ المحيطين به، كما قتلوا بعضَ قوادهِ، أصابوا الإمبراطورَ بجرحٍ بليغ قبلَ أن تُطبق عليهم القواتُ الأخرى، ليبادوا عن بكرةِ أبيهم بعدَ مقاومةٍ باسلة أرهقت القوات المهاجمة كثيرة العدد، واستشهدَ سعدون ورفاقهُ، وقادَ الملكُ المقاومة الباقية، ومعهُ جدي حتى كانَ ذلكَ اليوم، الذي دخلَ فيهِ جدي إلينا وكنتُ مع أبي وأمّي وإخوتي الصغار في أحدِ أكواخِ القرية القريبة من المدينة.

- كُنتم تقيمونَ في القريةِ القريبة، ألم يكنْ من خطرٍ عليكم؟

- قريةٌ فقيرة بل مدقعة الفقر، خاليةٌ من أي شيءٍ مفيدٍ للجند، سوى بعض الخضراوات المزروعة، لم تكن تغري أحداً منهم بمهاجمتها.

- حسناً وماذا حدث؟

- دخلَ جدّي ماجد إلينا وهو مكتئبٌ مهموم، فكلّمَ أبي بحزنٍ:

«اسمع يا بُنيّ، يجب أن تلجأ للكهوف المجاورة للمدينة، ادخلوا في أعماقها، وحاولوا أن تتزودوا ما استطعتم بالمؤن».

ولكنَ والدي اعترضَ بقوّة:

- لماذا علينا الرحيلَ إلى الكهوف؟

قالَ جدّي:

- ستحدثُ أحداث جسيمة مدمرة، ربما قضت على العديد من الناس، فيجب الهربُ منها بأية طريقة، وإلا سيكونُ الموت بالمرصاد.

- ما هي هذه الأحداث؟ ولماذا أنتَ متأكدٌ من حدوثها؟

- لا تناقشني كثيراً يا بُنيّ، أنا أطلبُ منكَ ذلك، لأنّهُ مِن الصعبِ عليَّ البقاء معكم طويلاً، أريدُ أن أعودَ إلى الملك، هو بحاجتي الآن أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى، ثم إنني لا أستطيعُ أن أشرحَ لكَ عن هذهِ الأحداث لأنها مجهولةٌ بالنسبة لي.

- هل ستزورنا في الكهوف؟ وكيفَ ستعرفُ موقعنا؟

- سأصلُ إليكم بعونِ الله، لا تقلق، هيّا استعدوا للمغادرة.

- ولكن يا أبي، ألن تتأثروا أنتم ومن مع الملك، بهذهِ الأحداث؟

- حتى هذا السؤال لا أستطيعُ أن أجيبكَ عليهِ يا بُنيّ، ربما نبقى في منأى عن الخطر، عجّلوا بمغادرةِ القرية، وداعاً.

* * *

أكملَ وهو يزفرُ:

- ودعنا جدي بحزنٍ، ثم خرجَ، وبدأنا نلملمُ حاجياتنا وأشياءنا، قبلَ أن نغادر إلى هذا الكهف، المتشعب، كانَ هناكَ بعضُ الناس يركضونَ في اتجاهاتٍ متعددة ومعهم أغراضهم وأطفالهم، وكانَ الوضعُ غامضاً بالنسبة إلينا.

- وماذا حدث؟

- بعدَ وصولنا بليلةٍ واحدة، شعرنا بأصوات هادرة تضربُ الأرض بشكلٍ

متواصل، وحينَ خرجتُ مُتسللاً إلى مدخلِ الكهف، رأيتُ حجارةً تسقطُ من السماء باتجاه المدينة.

- حجارة؟

- نعم حجارة ضخمة، تتساقطُ بالعشرات في كل الجوانب، فتصيبُ قواتَ الغزو وتدخلُ القصورَ والمعاقل، وحينَ نظرتُ للأعلى وكنتُ طفلاً في ذلك الحين، رأيتُ مشهداً لن أنساهُ في حياتي، الجبلُ المقابل لنا، وهو جبلٌ أجرد، كلسي المنشأ، يتشقّقُ من الأعلى وينهارُ ويلقي بصخورهِ وحجارتهِ فوقَ المدينة، وقد وصلت الاهتزازات إلى كهفنا وأرعبتنا، ولكني تذكرتُ قولَ جدّي إننا سنكونُ في مأمنٍ، وفعلاً رغم الاهتزازات لم تحدث تشقّقات في جدران أو أسقف الكهوف.

- هل كانت هناكَ هزّة أرضية سببت انهيارَ الجبل الكلسي، أم أمراً آخر سببَ ذلك؟

- لم أعرف الجواب في ذلكَ الحين، وظلَّ الجوابُ لُغزاً وعلمنا أنَ جدي والملك والرجال بقوا يقاومونَ المُحتل.

- قُتلوا؟

- نعم، وكانوا يعرفونَ أنّهم سيموتون، ولكنَ هذهِ المقاومة جعلت المُحتل يرحلُ إلى غيرِ رجعة عن بلادنا، وبدأ الناسُ يخرجونَ من الكهوف بأعداد قليلة في محاولةٍ لإعادة ترميمِ حياتهم.

- وأنتم لم تخرجوا من الكهفِ كغيركم؟

- اعتقدَ الناسُ أنّ لعنةً أصابت البلاد، وأنّ أحداثاً أخرى من جراء هذه اللعنة قد تقع، فظلّ القسمُ الأكبر في الكهوف ومن بين هؤلاء كنّا أنا وأبي

وعائلتي.

- وماذا عن الخونة الذين تعاملوا مع المحتل؟

- قُتلوا بغالبيتهم، ولكن من بقي فرَّ خارجاً، مغادراً البلاد، خوفاً من انتقامِ الأهالي منهم، وفعلاً جرت أحداثٌ أخرى، فلقد حدثت هطولاتٌ مطرية غزيرة، أدّت إلى فيضانات، أثّرَ بعضها على بقايا الجبل الكلسي فازدادت الحالة سوءاً وماتَ قسمٌ كبيرٌ من الناس.

- حكايةٌ غريبة وكيف تابعتم حياتكم؟

- لم يأمنِ الناسُ الباقون من الحياة خارجَ الكهوف فانتقلوا وهم قِلة إلى داخلِ الكهوف يعيشونَ وقد رتّبوها وأدخلوا عليها التحسينات، وأنشؤوا فيها الغرفَ والممرات والسراديب والأنفاق الواصلة بينَ كهفٍ وآخر، وفي داخلِ كلّ منهم يربضُ حزنٌ على تلكَ البلاد التي انقرضت فيها الحياة واندثرت، نتيجةً لعدم وعي أهلها، وارتباطهم بأرضهم، وخروقات الخيانة التي أتت على تماسكهم وتعاونهم، حتى بعد رحيلِ المحتل.

- قلتَ إنّ الذين يعيشون داخلَ الكهف، أو داخلَ الكهوف يتعاونونُ مع بعضهم؟

- بعدَ ماذا؟ بعدَ أجيالٍ من الخوف والقلق وعدم الاطمئنان وفقدان الثقة.

- وتزوجتَ، وأنجبتَ أولاداً داخلَ هذه الكهوف، كغيرِكَ من الناس؟

- نعم.

- ولماذا لا أرى سوى زهرة أينَ بقيةُ الأهالي؟ هلْ يعيشونَ في كهوفٍ

مجاورة لكم تصلُ بينها الأنفاق كما ذكرت.

- أصابنا الزمنُ بنكباتهِ يا بُنيّ، انتشرَ بيننا الطاعون على زوجتي وأولادي الآخرين، وإخوتي، وأقاربي، لم يبقَ سوى عددٍ قليل مِنا، نعيشُ ونجترُّ ذكرياتنا المُرّة، هيّا نكملُ جولتنا في المدينة، سنهبطُ من هذا المنحدر، كانت مدينةً زاهرة، أصابها الدمار والخراب مع الزمن.

عادَ بهِ الكهلُ إلى المدينة بعدَ أن هبطا طريقاً مُلتوياً، كانَ يضيقُ أحياناً لدرجةٍ لا تسمحُ بالخروجِ إلا بصعوبةٍ، وقد انتشرت حولهُ الأحراجُ المتكاثفة.

تجولَ هاني والكهلُ في المدينة، التي بدت فيها آثارٌ واضحة، للقصرِ الملكي والأسوار وأبنيةِ الجُند والقادة، وكانَ الكهلُ يشرحُ لهُ عن الأماكن وصوتهُ يتهدّج بالحزن.

حينما عادا، كانت الشمس قد جنحت للمغيب، وأشعلت الأضواء في الكهف، كانت زهرة قد أعدت عشاءً شهياً من الخضار المشوية، والخبز المحمص، تناولهُ هاني بشراهةٍ:

- شكراً لكِ يا زهرة، كان عشاءً شهياً.

قالت مبتسمة:

- أنا سعيدةٌ بأن شهيتكَ قد تحسنت، هذا يعني أن صحتكَ أصبحت على ما يُرام، وجروحكَ بدأت تلتئم.

سألهُ الكهل:

- لم تقلْ لي يا بُنيّ، كيفَ حدثَ وسقطتَ في تجمع مياه المطرِ في الوادي؟

- إنّها قصّةٌ طويلة يا عم.

- لا بأس، يمكنكَ حكايتها لنا.

تنهدَ وقد أعادهُ ذلكَ السؤال إلى الواقع القاسي:

- كنتُ في زيارةٍ لأهلي، وحدثت عدة شجارات صغيرة مع بعضهم، وفاجأني الميكانيكي بأن خزانَ البترول مثقوب بفعلِ فاعل، وأن أشياءً أخرى خربت عن عمد، ربما لتتسبب في موتي.

- ولماذا يحقدُ عليكَ بعضُ أهلكَ؟

- زوّروا توقيعي، وكتبوا أوراقاً باسمي، باعوا ما ورثتهُ عن أمّي وعن أبي، وأرادوا هلاكي حتى لا أكشفَ ما فعلوه.

- إلى هذه الدرجة؟ لم تقلْ لي هل أنتَ متزوج؟

- بالتأكيد يا عم، لذلكَ يجبُ أن أرحلَ باكراً، قد أعثرُ على سيارةِ أجرة على الطريقِ العام تُقلّني إلى المدينة التي أقيمُ فيها، سأبقى على اتصالٍ بكم، أليسَ لديكم هاتف؟

- لا يا بُنيّ، لم تدخل تقنيةُ العصرِ إلينا، ولا نريدها، نحنُ نعيشُ متخفين عن الناس خارجَ هذه المنطقة.

- معقول؟ لماذا لا تريدون الاختلاطَ بهم؟ كيفَ تعيشون، كيف تؤمنونَ طعامكم وكساءكم؟

- الطعامُ نؤمنهُ من الحقولِ المزروعة، والكساءُ متوفرٌ بكثرة، تركَ لنا الطاعون كثيراً من الأشياء التي لم نستعملها بعد، وكانت لأهلنا.

- لماذا لا تدخل زهرة إلى المدرسة وتتعلم؟

- زهرة تعرفُ القراءة والكتابة، وقد كتبت مخطوطاً كبيراً تحكي فيه قصة

الدمـار الذي أصـابَ بلادنا.

- رغـمَ أنّـكَ رويـتَ لي أحداثاً صادقة عـن الفترة التي عشـتها، ولكنها أحداثٌ بعيـدة في التاريـخ. ربمـا لا نعـرفُ تفاصيلها كثـيراً، ولكنكَ تنتمي لبلادنـا، والأحداث حدثـت عندنـا هنـا، والجيـوشُ زحفـت وانتهكـت أرضنـا، وأنـا ابـنُ هـذه البـلاد، لم أسـمع عـن أحـداث حدثـت قبـلَ سـنوات اسـتخدمت فيهـا الخيـولُ والعربـات والفيلة؟

- هل تعتقدُ أنّي حكيتُ لكَ أحداثاً خيالية؟

- معاذَ الله يا عم أن أشكّ في ذلك، ولكنها أحداثٌ لا تنتمي لعصرنا.

قالت زهرة مخاطبةً والدها وهاني يصغي:

- قلـتُ لـكَ يـا أبي، كلـما تدخلـتَ في حيـاةِ النـاس خـارجَ الكهـف، ينظـرونَ إلينـا كجـزءٍ بعيـدٍ مـن التاريـخ، رغـمَ أننـا نعيـشُ بينهـم.

قالَ هاني متدخلاً:

- الـشيء المُحيّر يـا زهـرة أن جـدَّ والـدكِ ماجـد عـاصرَ الخيـول والجيـوش والعربـات والسـيوف والنبـال، وهـذهِ انقرضـت منـذُ مئـاتِ السـنين، أصبـحَ هنـاكَ البندقيـة والمدفـع والطائـرة.

- المشـكلة أننـا نعـرفُ ذلـك، ولا نـدري السرّ، كلـما نخرجُ مـن الجهة الأخرى للكهـف نجـدُ أمـوراً غريبـة، نحـاولُ التأقلـمَ معها عن بعـد، وإذا تدخلنا بهـا، ينظرُ إلينـا الناس نظراتهم لأشـباح.

- في الأمرِ سرٌّ بالتأكيد.

* * *

لجأ هاني لفراشهِ مُتأخّراً يُفكّر بالأحداثِ التي حكاها الكهل، وحين صحا، شعرَ أن صحتهُ عادت لطبيعتها وقد التأمت جروحهُ تماماً، حتى لم يبقَ لها أثر، وهذا ما زادَ من تعجبهِ واستغرابهِ.

ودّعَ الكهل بحرارةٍ، ورأى الدموعَ في عينيّ زهرة، فشعرَ بمدى غربتها وضياعها، ثم خرجَ من فتحةِ الكهفِ المطلّة على الوادي بعد جهدٍ كبير، كانت الفتحة طويلة صاعدة تحيطُ بمدخلها النباتات والأشجار الحراجية المتكاثفة، وحينَ خرجَ إلى العراء، بدأ يصعدُ السفحَ، وقد شعرَ بالقوّةِ والنشاط، وسمعَ زمور السيارات العابرة، فعرفَ أنهُ قريبٌ من الطريق المعبّد، واستمرَّ يصعدُ السفحَ ولم يعثر في طريقهِ على أحد، كانَ الطقسُ دافئاً، وبعضُ الحقول مزروعةٌ بالقمح الذي كان طويلاً تمتدُ سنابلهُ الملأى إلى الأعلى.

استغربَ ذلك قليلاً، وقد اعتقدَ أنّ الوقتَ مُبكّر على نُضجِ القمح، وحينَ وصلَ إلى الطريق تنفسَ الصعداء، استغربَ أنّهُ عريض، يختلفُ عن الطريق الضّيق الذي انزلقت منهُ السيارة حين اندفعت نحو الوادي.

أيكونُ طريقاً آخر، غيرَ الطريق الذي حصلت فيهِ حادثتهُ؟

كانت هناكَ سيارات تسيرُ بسرعةٍ خارقة، يجبُ أن يشيرَ إلى إحداها، قد تتوقّفُ لهُ وتوصلهُ إلى المدينة التالية، كانَ الوقتُ هو منتصف النهار، والحرارةُ مقبولة، وهو يرتدي لباسهُ الذي غسلتهُ وجففتهُ ورتبتهُ زهرة.

ارتدى خلالَ فترةِ تواجدهِ في الكهف لباساً طويلاً لوالدِ زهرة، وحينَ ودّعمها وهو يرتدي لباسهُ، شعرَ بغصّةٍ مخنوقة في أعماقِ الكهل، كأنهُ يريدهُ أن يبقى معهما يؤنسُ وحدتهما ويخرجهما من رتابةِ حياتهما الفارغة، كما

توقّعها.

لماذا لا يختلطان بالناس؟ لماذا هذه العزلة؟ أيمكن أن يندمجا في مجتمع القرية القريبة المحيطة بهما.

أمعقولٌ أن تحدثَ تلكَ الحكاية التي حكاها الكهل؟ رغمَ أنّها ممتعة ولكنها تبدو غيرَ منطقية، كأنّها مرّت بأحداثها المتلاحقة، منذُ زمنٍ قريب، وحوادثها تنبئ أنّها موغلة في القِدم؟

انتابتهُ جملةٌ من التساؤلات، وهو يمشي على الرصيف يشيرُ للسياراتِ العابرة بالوقوفِ دونَ نتيجةٍ، وفجأةً سمعَ صوتَ مكابح قوية لسيارةٍ تتوقفُ قربهُ.

- هه إلى أينَ أنتَ ذاهب؟

قالَ بارتباك:

- باتجاهِ العاصمة، ولكن لا يهم، إذا كنتِ متجهةً صوبَ المدينة القريبة فسيكونُ هذا مناسباً لي.

- إلى العاصمة؟ أم إلى المدينة القريبة؟

كانت امرأةً جميلةً في أوائل عقدها الرابع كما خمّنَ، سألها:

- أنتِ ذاهبة إلى العاصمة؟

- نعم، إلى مكانٍ قريبٍ من العاصمة، حظكَ جيد، تفضّل.

- شكراً لك.

صعدَ إلى جانبها وهدرت السيارة منطلقة:

- أنتَ من هذهِ المنطقة؟

قالَ:

- أنا في الحقيقة ولدتُ هنا، ولكني قضيتُ أغلبَ حياتي في العاصمة.

- أنتَ تشبهُ شخصاً أعرفهُ.

- أرجو أن لا يكونَ شخصاً سيّئاً.

- إنّـهُ في غايـةِ السـوء، ولكنّـي لا أحقـدُ عليـه، بـل أشـفقُ عليـه، هـه، مـن أي عائلـةٍ أنـت؟ لا أقصـدُ التطفـل، أمامنـا سـاعتان عـلى الأقـل لنصـل، هـي فرصـةٌ لنتعـارف.

- أنـا أسـتاذٌ في الجامعـة، اسـمي هاني، سـأحكي لكِ ما تريدين معرفتـهُ، بعدَ أن أعـرف اسـمكِ وطبيعـة عملـكِ، ولمـاذا أوقفـتِ سـيارتكِ لتصحبيني معكِ مـع أن كل السـيارات الأخرى تجاوزتنـي دونَ اكتراث؟

ضحكت:

- اسـمي سـلوى، أنـا طبيبـةُ أسـنان أقيـمُ في هـذه المنطقـة. وعنـدي عملٌ في العاصمـة، أمـا لمـاذا وقفـتُ لـك، فربما بسـببِ لهفتـكَ كما بدت لي، وبسـببِ يأسـكَ مـن مسـاعدة الآخريـن، أنـتَ تقـفُ منـذُ زمـنٍ هنـا، محـاولاً أن توقفَ سـيارة ربما حتـى المدينـة القريبـة، حيثُ يمكن أن تسـتقلّ سـيارة أجرة، تبدو تعباً يائسـاً، لذلكَ أردتُ مساعدتكَ.

- وما حكايةُ أنّني أشبهُ شخصاً تعرفينه؟

- بالفعـل هـذه حقيقة، أنتَ تشـبهُ رجلاً كانَ سـيدمّرُ حيـاتي لولا أن تدخلّت إحـدى قريبـاتي، وهي جـارةٌ قريبة مـن عائلتهِ، لتنقذني مـن الوقوع في فخهِ.

- ربما كانت عائلته، وعائلتي واحدة، ما دامَ يُشبهني إلى هذا الحدّ؟

- لذلكَ سألتكَ عن اسم عائلتكَ.

حكى لها شيئاً عن حياتهِ، عائلته، وكيفَ حرمهُ أخوهُ من حقهِ في تركةِ والدهِ ووالدتهِ.

ثم انطلقَ معها بالحديث، بعدَ أن تدخّلت في بعض القضايا، كأنّها تعرفها، كانت على علاقةٍ بعماد، ابن عمهِ، والذي كان يُفاخر بقربهِ من نائلة، التي يعتبرها ملهمتهُ في مشاريعهِ الكبيرة، وكانَ هاني يستمعُ لها مذهولاً.

- إنّها صدفةٌ غريبة أن ألقى أحدَ أقرباءِ عماد.

- كم مضى على علاقتكِ بهِ؟

- نحو خمس سنوات، أنا الآن متزوجة وعندي ولدان، ورغمَ ذلك لم أنسَ القهرَ الذي سببهُ لي، وثقتُ به، وبحبّهِ، وأعطيتهُ كلّ ما وفرتهُ من مال، بل بعتُ البيتَ الذي خصصهُ لي والدي لأسهمَ في مشاريعهِ الخُلّبية التي كانَ يحكي عنها بحماسٍ، حتى تعرفتُ على الخالة هديّة التي كانت تزورُ أمّي.

- هديّة؟

- أعرفُ أنّكَ تعرفها، هي جارةٌ لعائلتكم، وهي قريبةٌ لأمّي، حكت لي الكثيرَ عنهُ وعن سفالتهِ، وكيفَ اشترى سطحاً لبيتِ العائلة الكبير بسعرِ التراب بعد أن زوّروا توقيعَ الأخِ الأكبر لزاهي، حتى يتمَ البيع بشكل قانوني.

- الأخ الأكبر لزاهي؟

- نعم، إنّهُ مثلكَ أستاذٌ في الجامعة، تدهورت سيارتهُ قبلَ سبعِ سنوات وقد عثروا على سيارتهِ قربَ مستنقعٍ للماء، ويقالُ إن الوحوشَ أكلت جثتهُ.

- منذُ سبع سنوات؟ ماذا تقولين يا دكتورة سلوى؟

- هكذا أخبرتني خالتي هديّة.

- ألديكِ روزنامة؟

- إنّها معلّقةٌ أمامكَ، أحرفها صغيرة، ولكن يمكن قراءتها.

كادَ يُغمى عليهِ إنّهُ العام 2019 «معقولٌ يا إلهي؟! سبعة أعوام!».

لحظت سلوى ذهوله:

- خيرٌ يا د. هاني، ما بكَ؟

استردَّ شيئاً من هدوئهِ:

- أنا بخير، أكملي حديثكِ عن عماد يا دكتورة.

- حينَ عرفتُ تلكَ المعلومات من الخالة هديّة، حاولتُ أن أستردَّ بعضَ الأموالِ التي أخذها مني، وأنا أظهرُ لهُ كثيراً من اللطافة، ولكنهُ أظهرَ لي وجههُ القبيح بعدَ أيام، وطردني من حياتهِ إلى غيرِ رجعة، بعدَ أن خسرتُ كلَ شيءٍ، ولولا أحمد زوجي لعشتُ في جحيمٍ من اليأسِ والاضطراب، وقفَ إلى جانبي، ونشلني من ضياعي، وأعيشُ معهُ الآن أجملَ سنواتِ عُمري، دونَ أن أنسى ذلكَ الوغد الذي حطّمَ حياتي.

كانَ هاني ما زالَ على دهشتهِ وهو يتذكّرُ الكهلَ وزهرة وقصة دمارِ المدينة، ويحاولُ أن يقنعَ نفسهُ بأن الزمنَ يمضي بسرعةٍ في الكهف، أسرعَ من الزمنِ خارجه.

كيفَ ستستقبلهُ زوجتهُ وأولادهُ؟ كيفَ سيستقبلهُ مجتمعهُ الصغير؟ كيفَ سيعاود مسيرةَ حياتهِ بعدَ اختفاءِ سبعِ سنوات عن عالمٍ لن يقتنعَ بأيِّ شكلٍ من الأشكال بقصةِ الكهف الذي عاشَ فيه، إلا إذا تمكنَ من العثور على زهرة

ووالدهـا، كشـاهدين على فـترةِ اختفائهِ.

ولكـنَ ذلـكَ زادَ مـن تشـويشِ تفكـيرهِ، وقـد لحظـت سـلوى ذلـك، فصمتت عـن الحديـثِ لبعـضِ الوقت.

(4)

العودة إلى فلك الحياة

كانَ يستمعُ لما تحكيهِ سلوى وهو مذهول، أمعقولٌ أن يكونَ قد قضى سبعَ سنواتٍ في ذلكَ الكهف، وهو يعتقدُ أنّهُ قضى عدة أيام؟

ما الذي حدثَ لعالمهِ الصغير خلالَ تلكَ الفترة؟ ما الذي حدثَ لأولادهِ وزوجتهِ وأصدقائهِ وطلابهِ؟ هل وُزعت أوراقُ نعيهِ لتثيرَ الحزن لدى معارفه؟

قطعت سلوى عليهِ شرودهُ:

- أراكَ مُرتبكاً مُندهشاً؟ ألم تكن تعرف أن عماداً على هذهِ الدرجة من الوضاعة؟

- بل كنتُ أعرفهُ.

- إذن ما الذي حدثَ لك؟

- أفكّر بمدى ما قاسيتهِ من متاعبَ معهُ.

- شكراً لك، هه، لم تحدثني عن نفسكَ كثيراً؟ ما درجة قرابتكَ لعمّاد؟

- عماد ابن عمي، وأختهُ زوجةُ أخي.

- أخوكَ زاهي!

- نعم.

- أنتَ أستاذٌ في الجامعة؟ هل لزاهي أكثر من أخٍ يُدرّس في الجامعة؟

- لا، أنا الوحيد الذي يُدرّس في الجامعة؟

حدّقت مستغربة:

- معقول؟ قالوا لي إن سيارتكَ تدهورت قبلَ سبع سنوات؟

- نعم، وهذا هو الشيء الذي لم أفهمه.

- كذبوا بشأنكَ؟ إنّهم أنذال، ماذا كنتَ تفعلُ في هذه المنطقة، هل تعطلت سيارتك؟ أم أنّكَ لا تملكُ سيارة.

ظهرَ ارتباكهُ الواضح: - ليسَ لديّ سيارة الآن.

- أنتَ تُخفي أمراً عنّي؟

وماذا يقولُ لها؟ حكايتهُ لا تُصدّق.

- هه، ما بكَ يا دكتور؟ لديكَ مشاكل مع أهلك؟

- مشاكل كثيرة مع الأسف.

- أمامنا استراحة على بعد كيلومترات سنجلسُ فيها ونتناولُ القهوة، يبدو أن لديكَ كلاماً كثيراً.

جلسا في الاستراحة يتناولان القهوة، سألتهُ:

- إلى هذه الدرجة تعتقدُ أن قصّتكَ لا تُصدّق، لا بأس، أريدُ أن أسمعها مهما كانت إن لم تكن خاصة جداً.

- هي ليست إلى هذهِ الدرجة من الخصوصية، ولكنّها فعلاً لا تُصدّق.

- شوّقتني لسماعها.

- تَبدين مُثقفة يا دكتورة سلوى، أتؤمنينَ بتقلصِ الزمن وتمدّدهُ؟

- ماذا تقصد؟

- كأن يدخلَ الإنسانُ في نفقٍ ويعتقد أنّهُ قضى فيهِ وقتاً قصيراً، وإذا بهِ يقفزُ فوقَ الزمن لسنوات عدّة؟

- إلى هذهِ الدرجة؟ هل هي حقيقةٌ علمية ما تقولها الآن؟ أم أنّهُ افتراض؟

- بل إنّها حقيقة.

- أوضح لي أرجوك.

- آه، أرجو أن تصدقي ما سأحكيهِ لكِ.

وحكى هاني لسلوى قصتهُ الغريبة، وهي تستمعُ إليهِ مذهولةً، ولم ينتبها إلى ذلكَ الرجل الذي كان يحدّقُ في هاني بعمقٍ ويبدو عليهِ الاستغراب.

وحينَ طلبت سلوى خادمَ المقهى لتدفعَ حسابَ القهوة التي شربتها وهاني، تقدّمَ ذلكَ الرجل متردّداً.

- أنا آسف، أتسمحُ لي بسؤال؟

همسَ يقولُ لسلوى:

- إنّهُ أمينُ الجامعة، لقد عرفني، ماذا سأقولُ لهُ؟

تدخّلَ الرجلُ دونَ أن ينتظرَ موافقتهُ:

- أنتَ قريبُ الدكتور هاني؟ أنا آسف أنتَ تشبههُ بشكلٍ عجيب، هل أنتَ أخوه؟

- هل أشبههُ إلى هذا الحد؟

- نعم، نعم، أنت صورةٌ طبق الأصل عنهُ، رحمهُ الله كانَ رجلاً متميزاً بعلمهِ وعملهِ وثقافتهِ.

- وما الفائدة إن كنتُ أشبههُ كثيراً؟

- معكَ حق، أنا آسف، رحمهُ الله، عن إذنك.

خفّفت عنهُ شيئاً من توترهِ:

- هذا أوّلُ الغيث يا د. هاني، أعانكَ الله، ستعاني كثيراً، حتى تستطيعَ أن تحقّقَ هدفكَ بإعادةِ شخصيتكَ للحياة، كيفَ ستستقبلكَ زوجتكَ وأولادكَ؟

- يبدو أنني في ورطةٍ حقيقيةٍ فعلاً.

- اسمع يا دكتور هاني، سأحاولُ مساعدتكَ.

- كيف؟

- سأوصلكَ إلى بيتكَ في العاصمة، وأحاولُ أن أسهلَ الأمرَ على زوجتكَ، وهي امرأةٌ مثقفة؟

- نعم، نعم، ولكن ما علاقة حالتي بالثقافة؟

- ستتفهم الأمر، لا تقلق، هيّا إلى السيارة، أنا واثقةٌ أن زوجتكَ طيّعة.

- أعلم ذلك، ولكن ماذا لو ارتبطت بإنسانٍ آخر؟ لم أغب فترةً قصيرة، غبتُ سبع سنوات وهي مدّة غير عادية.

- أتعتقدُ أن زوجتكَ قد ارتبطت بإنسانٍ آخر؟ معقول؟

- وما المانع؟ هي امرأةٌ شابة وجميلة، قد يتمنّاها الكثيرون.

- والأولاد؟ قد يشكّلونَ عائقاً؟

- ربما، ولكنّي أضعُ كلَ الافتراضات الممكنة.

- معك حق، على كل حالٍ أنا جاهزة للذهابِ معكَ إلى البيت، ومساعدتكَ ما أمكن.

- شكراً لك.

انطلقت بالسيارة وقد احترمتْ ارتباكهُ وقلقهُ لبعض الوقت، ثمّ عادتْ تُبادلهُ الحديث، ويضعان كافة الاحتمالات الممكنة لمقابلةِ الأقرباء والأهل والمعارف.

* * *

كانت السيارة في طريقها إلى العاصمة؛ وقد بدأ هاني يلحظُ التغيير الذي طرأ على الطريق.

لقد اتّسعَ في بعضِ الأمكنة وامتدت فوقهُ الجسور، وحينَ دخلَ العاصمة؛ لحظَ تعدّدَ الجسور المتقاطعة والأنفاق، ولكن مناظرَ الحافلات الصغيرة وهي تقطعُ الطرقات، وتنفثُ الدخان الأسود من مداخنها، هذه لم يتغيّر.

- سنصلُ إلى الضاحية الغربيّة، من طريقٍ مختصر، عبر الجبل.

- مصممةٌ أن تتابعي طريقكِ معي؟ وماذا عن المؤتمر؟

- سأحضرُ جلسات المساء، لا يهم، لا تقلق عليّ.

- سأدلّكِ على البرج الذي أسكنهُ في الضاحية، ها هو الشارعُ الرئيسي في المنطقة، نعم تابعي الطريق حتى نهايته تقريباً.

- بعدَ الإشارة؟

- هذهِ جديدة، لم تكن موجودة من قبل.

- نعم، نعم، إنّهم جيراننا في البرج المجاور، يا إلهي ماذا أفعل؟

- ابتسم لهم وسلّم عليهم.

- هه، سأحاول.

- سأتابعُ طريقي في الشارع، هناكَ جسرٌ، هل أمرُّ تحتهُ؟

- نعـم، كأنّي لا أعـرفُ المنطقـة، لقـد تغيرّت كثيراً، أشـارَ إليهـا أن تقفَ خلفَ سـيّارة، كانَ يريـدُ أن لا يقـتربَ مـن البـرج الـذي فيه أسرتهُ أكثر مـن اللازم.

تنهّدَ مهموماً:

- يا إلهي، إنّها لحظاتٌ صعبة.

- اهـدأ قليـلاً، بالتأكيـد هـي لحظاتٌ صعبة، ولكـن لا بدَّ مـن مواجهتها، هيّا اتّـكل عـلى اللّه ولنتّجه صـوبَ البرج.

خرجَ يمشي متثاقلاً، كانَ الناطور يقفُ أمامَ بابِ البرج:

- يا إلهي، إنّه حارسٌ جديدٌ للبرج، ماذا سأقولُ له؟

- إن سألكَ عن البيت الذي تقصدهُ، قُل لهُ، ولا تتردد.

- معكِ حق.

وفعلاً أوقفهما الرجل:

- إلى أين؟ أنا آسف إن استوقفتكما، يجب أن أعرفَ إلى أي بيتٍ تقصدان؟

قالَ هاني: إلى منزل الدكتور هاني.

- منـزل المرحـوم الدكتـور هـاني، إنّـهُ في الطابـقِ العـاشر، لقـد عـادت زوجتهُ قبـلَ قليـلٍ مـن عملها.

- والأولاد؟

- ليـس هنـاك سـوى ولـدٌ واحـد فقـط، الكبـيران يدرسـان في أوروبـا، وهـما

- شكراً لكِ.

- هل أضغطُ زر (الأنترفون)؟

قالت سلوى مراوغةً أمامَ الناطور:

- لا داعي، هي تعرفُ أنّنا قادمان.

وازدادَ وجيبُ قلبه وهو يصعدُ إلى الطابقِ العاشر، ولحظت سلوى مدى ما يمرّ به من توترٍ وعصبيّة، وحينَ وصلَ المصعد إلى الطابق العاشر، وتوقف، ودفعَ الباب بقوّة، واتجهَ نحو بابِ المنزل، ثمّ تسمّرَ لا يستطيعُ الحركة.

شدّتهُ سلوى من يدهِ وهي تهمسُ لهُ مشجعةً:

- حاول أن تتمالكَ نفسك، إنّها أهمُّ اللحظاتِ في حياتكَ.

- أعلم أن كلَّ شيءٍ يتوقّفُ عليها.

ويبدو أن فكرةً جديدة طرأت على ذهنها:

- انتظر قليلاً أمامَ الباب، أو اشغل نفسكَ بالصعود إلى سطح البناء لدقائق، سأمهّدُ لك الجوّ.

- كانَ السطحُ مقفلاً من قبل، وأعتقدُ أن مفتاحهُ مع الحارس.

- لا بأس، قِف هنا إن رغبت، أمامَ الباب كأنكَ تنتظرُ أحداً، لن أتأخّرَ عليك .

ضغطت على جرسِ بابِ المنزل:

- قُلت لي اسمها هدى، هه؟

- نعم، سأهبطُ هذه الدرجات حتى لا يراني أحد.

سمعَ صوتها وازدادَ وجيبُ قلبِهِ.

- أنا الدكتورة سلوى، هل لي بدقائق من وقتكِ يا سيدة هدى؟

- خير؟

- إنّهُ موضوعٌ خاص وشديدُ الأهمية.

قالت بتردد: - لا بأس، تفضلي.

لم يعدْ يسمعُ شيئاً.

تابعت سلوى كلامها:

- أنا آسفة، أنتِ لا تعرفينني، ولكنَ الصدفة جعلتني آتي إلى هنا وأتعرفُ عليك.

- لا بأس، لم تقولي لي ما هو هذا الموضوع الخاص شديد الأهمية؟

- إنهُ يخصُّ الدكتور هاني.

- هاني؟ آه، رحمهُ اللّه.

- هل مات؟ اعتقدتُ أنّهُ مفقود.

- لم يعثروا على جثتهِ، ولكنهم قالوا إن الوحوشَ مزقت جثتهُ.

- من الذي قال؟ رجالُ الشرطة؟

- بعد أن بحثوا جيداً، وتركوا أخباراً في المنطقة، لمْ يصلوا إلى نتيجة، استنتجوا أنّهُ خرجَ من السيارة الغارقة، وقد أصيبَ بجروحٍ وأُغمي عليهِ فسارعت الذئاب والوحوش الجائعة المنتشرة في المنطقة لافتراسهِ.

- ولم يعثروا على أثرٍ له؟ أقصدُ قطعةَ ثيابٍ، أو ما شابه؟

- لا.

- إذن إنه موضوعٌ مُحيّر، وكيفَ افترضتم موتهُ؟ وأقمتم جنازتهُ؟

- أهلهُ قاموا بكلّ المراسم، أخوهُ زاهي، وأقرباؤهُ.

- زاهي؟

- تعرفينه؟

- تقريباً، جاؤوا إلى هنا وأثبتوا موتهُ؟

- عملوا جنازة رسمية، وتابوتاً رمزياً، ودُفنَ في قبرٍ رمزي، بكاهُ أصدقاؤهُ وطلابهُ ومحبّوه.

- تابوتٌ فارغ؟ وقبرٌ فارغ؟ تبدو العملية غير مقنعة.

- وماذا نستطيعُ أن نفعل؟

- قلبي يحدثني أن ذلك الرجل لم يمت.

- ماذا تقولين؟

- أرأيتم جثته؟ أرأيتم أثراً يدلُ على موتهِ؟

- آه، لا، لم يعثروا كما قلتُ لكِ على أثر.

- إذن؟ البرهان على موتهِ غير مكتمل، أي أنّ هناك احتمالاً بأن يكونَ حيّاً، قد يكون قذفَ نفسهُ على جانب الطريق، والتقطهُ بعضُ الناس، ولأنهُ فقدَ ذاكرتهُ نتيجةَ سقوطهِ، لم يبلغوا عنه، حتى لا يتهمهم أحد.

- ليست نظرية مقنعة، إنّها أشبهُ بفيلمٍ سينمائي.

- هناكَ الكثير من الأمور غير المقنعة في حياتنا.

- أنتِ زميلتهُ في الجامعة؟

- لا، أنا طبيبةُ أسنانٍ، جئتُ أحضرُ مؤتمراً طبيّاً هنا.

- ولمَ جئتِ إليّ؟ قُلتِ إن لديكِ موضوعاً خاصاً عن زوجي.

قالت وقد حسمت أمرها أخيراً:

- اسمعي يا سيدة هدى، زوجكُ لم يمت.

- ماذا تقولين؟ سقطَ وفقدَ ذاكرتهُ كما قلت قبلَ قليل؟!

- الموضوعُ معقّدٌ أكثر من ذلك.

- أرجوكِ، اشرحي لي موضوعكِ المعقد.

- طيلةَ سبع سنوات، وأنتِ تنتظرينَ عودتهُ؟

- عودتـهُ؟ مـاذا تقولـين؟ لقـد بكيتـهُ كثـيراً، وأقنعـتُ نفـسي أن أزورَ قـبرهُ الفـارغ، وأرثيـهِ هنـاك، لم أفكـر عـلى الإطـلاق بأنـهُ حـيّ، ولم تخطـر على بـالي هذه الفكـرة، الجميـعُ حـولي وضعـوني في دائـرةِ تصديقِ فكـرةِ أن جثتـهُ المختفية، تُهضم في بطـونِ الوحـوش التـي مزقتهـا وأكلتها.

- ولم تتزوجي؟

- ولم أتـزوج؟! لسـتُ في مـزاجِ مـن تسـعى لتجديـدِ حياتهـا، عنـدي ثلاثـةُ أطفـال، كانَ يجـبُ عـليّ أن أهتـمَّ بهـم وأنـسى نفـسي، ثـم إنـهُ كانَ رجلاً رائعـاً، لن أنـسى لهفتـهُ وحبّـهُ لي ولأولادنـا، ولا يمكـن أن أبدّلـهُ برجـلٍ آخـر.

- إذن، اسـمعي يـا هـدى، زوجـك حـيّ، وقـد اختفـى في كهـوفِ المنطقـة سـبعَ سـنوات، دونَ أن يشـعر، قابـلَ أناسـاً هنـاك عالجـوا جِراحهُ واعتنـوا به، حتى اسـتعادَ قوّتـهُ، ولكنّـهُ حـينَ خـرجَ مـن الكهوف، وجـدَ أن الزمـنَ تجاوزهُ كثـيراً، كانَ أشـبهُ بالراقـد في غيبوبـةٍ طويلـة اسـتيقظَ منهـا فجـأةً بعـدَ مـرورِ زمـنٍ طويل.

- هاني حي؟ لم يمتْ؟ معقول؟ أينَ هو الآن؟

- تمالكي نفسكِ، إنّهُ في الخارج ينتظرُ أن يفتحَ لهُ أحدٌ الباب، ويقولُ لهُ أهلاً، صرخت ملهوفةً باكية:

- يا إلهي.

واندفعت راكضةً تفتحُ الباب:

- هاني أينَ أنت؟

أقبلَ ملهوفاً دامعَ العينين:

- هدى، حبيبتي.

غمغمت وهي تشهقُ غيرَ مُصدّقةٍ وجودهُ:

- معقول؟ كيفَ حدثَ هذا؟

قالت سلوى:

- فعلاً إنّ ما جرى أشبهُ بحلمٍ بعيدٍ عن التصديق.

ثمّ شدّت على يدها وهيَ تقول:

- الآن جاءَ دورِكِ يا هدى في مساعدتهِ على استعادةِ شخصيتهِ وأصدقائهِ ومركزِه.

- كل شيءٍ يهون بوجودهِ.

فتحَ الباب ودخلَ فتى بلباسهِ المدرسي:

- خيرٌ يا ماما؟ لماذا تبكين؟

قالت مندفعةً نحوهُ:

- سعد، تعالَ يا بُنيّ، سلّم على والدكَ.

- والدي؟ ماذا تقولين؟ ألم يمتْ والدي؟

قالَ هاني:

- لا يا بُنيّ لم أمت، اعتقدوا أنّني مت.

- وقبركَ الذي تزورهُ أمي؟ آه، إنكَ تشبهُ أبي.

- القبرُ فارغ، لم يعثروا على جثتي، اعتقدوا أنّها تمزّقت بفعلِ العاصفة، أنا أبوكَ يا سعد؟ ألا تتذكرني؟ ألا تتذكر حكاياتي عن الأبطال والشجعان ووحوش الغابة.

كأنّما استردَّ الصبي ما تحملهُ ذاكرتهُ عن والدهِ دفعةً واحدة، اندفعَ نحوهُ باكياً:

- بابا، أنا لم أنسك أبداً.

قالت هدى:

- أصبحَ في الثانية عشرة من عمرهِ الآن.

وقفت سلوى متهيّئةً للخروج:

- عن إذنكما، سأذهبُ إلى فندقي، لمتابعةِ المؤتمر، لديّ حجزٌ هناك.

- لا، لن نسمحَ لكِ، لم أعرف الظروف التي تعرفتِ بها على هاني.

- سيحكي لكِ الدكتور هاني كُلّ شيء.

قالَ هاني يرجوها:

- اجلسي أيضاً، سنتناولُ طعامنا معاً.

- لا أستطيعُ تأخّرت، يجب أن أرتاحَ قليلاً، أتعبتني قصتكَ الغريبة يا د. هاني.

- لا بأس.

عاتبتها هدى:

- لم تشربي شيئاً معقول! اجلسي أرجوك.

- حسناً، سأجلسُ دقائق أخرى.

* * *

لم يكن الوضع منطقياً بالنسبةِ إلى هاني، فمعركتهُ مع استعادةِ اسمهِ ومركزهِ ليست سهلة، حتى حارس البناء، كان يعتقدُ أنّهُ مات.

ولكنَ العديد من الجيران يعرفونهُ جيّداً، وكانوا يلتقونَ بهِ، ويحادثونهُ، ويستشيرونهُ في بعضِ الأمور، فحينَ يظهرُ لهم من جديد لن يكونَ من الصعبِ إقناعهم بعودتهِ للحياة، بعدَ أن فقدوا آثاره تلكَ المدّة الطويلة.

هي فعلاً مُدّة طويلة، مُدّة من الصعب أن تقنعَ أحداً بأنّكَ قضيتها في كهف، وأنتَ تعتقدُ أنّكَ تقضي بضعةَ أيّامٍ فقط.

جلست الدكتورة سلوى نحو ساعة أخرى، وشربت العصير والقهوة وأكلت بعضَ الحلوى التي صنعتها هدى لسعد، وحينَ غادرتهم، شعرت بأنّها أعادت الدكتور هاني إلى حياتهِ الاعتيادية على الأقل مع زوجتهِ وابنهِ.

انفردت بهِ بعدَ ذهابِ سلوى:

- كيفَ سنحكي للناس عن هذا الاختفاء الغريب؟ أعتقدُ أنّ ما قالتهُ سلوى يبدو منطقياً بعضَ الشيء.

- حولَ فقدان الذاكرة لفترةٍ من الزمن نتيجة تدهور السيارة، ثم عودة الذاكرة من جديد.

- نعم، هناك الكثير من القرى المتجاورة في تلك المنطقة، أحدُ الفلاحين

عـثرَ عليـك بـينَ المـوتِ والحياة، فأنقـذكَ في تلكَ الليلـة العاصفة وربما أحـضرَ طبيباً إلى منزلـهِ، عالجـكَ، واكتشـفَ أنّكَ مُصاب بفقـدانِ ذاكرة، فانتظركَ حتى اسـتعدتَ ذاكرتكَ.

- كُل تلك الفترة؟ دونَ أن يُبلغ عنّي؟

- ربمـا لا يملـكُ مذياعـاً أو تلفـازاً؟ وربمـا كانَ أميّاً لا يقـرأ ولا يكتب؟ أو حتى ربمـا كانَ متقدّمـاً في السـنّ يعيـشُ معَ زوجتهِ العجـوز، بعدَ أن هجـرهُ الأبناء.

- الفكرة الأخيرة، هي الأشدُ إقناعاً.

- تقصدُ المتقدّم في السنّ وزوجتهِ العجوز؟

- نعم، وليس لديهم أحد، هجرهم أولادهم إلى المدن، أو ربما إلى المهجر.

- نعم، إنّها الفكرة الأكثرُ إقناعاً.

قطعَ عليهما الحديث رنينُ جرسِ البابِ الخارجي، قالت مُستغربةً:

- من الذي يأتينا في هذهِ الساعة؟

خرجَ سعدٌ من غرفتهِ:

- سأفتحُ أنا الباب يا أمي.

- لا بأس يا بُني.

فتحَ الباب، كان الناطور، تحدّثَ سعد معهُ ثمّ عادَ إلى والدتهَ:

- هناكَ بعضُ المبالغ المتراكمةِ علينا، الاشتراك الشهريّ والكهرباء والماء.

- لا بأس يا بُنيّ سأدفعها.

أحضرت المال، ثمّ قالت لهُ:

- زوجي عادَ أخيراً.

- ماذا تقولين يا سيدتي؟ زوجك عاد؟ ألم يكن ميتاً؟

- كانَ مفقوداً، كانَ في المستشفى فاقدَ الذاكرة.

- الحمد لله على سلامتهِ، لقد أخبرني الجميعُ أنهُ ميت؟

- لم يكونوا يعرفون، لا بأس.

أظهرَ هاني نفسهُ ومعهُ المال:

- تفضل، أهذا هو المبلغُ الذي تطلبهُ؟

- إنّه يزيدُ مئة ليرة يا دكتور.

- لا بأس، هي لك، وهذهِ مئةٌ ثانية أيضاً.

- شكراً جزيلاً.

أغلقَ الباب، كانت تبتسم:

- سيخبرُ جميعَ السكان، وسنرتاحُ من مشكلةِ إخبارهم واحداً بعد الآخر.

- ولكنَ شرح القصّةِ ضروري لمن يرغبُ بسماعها.

- معكَ حقّ، أعاننا اللهُ على الأيامِ القادمة.

لم تُضع هدى الوقت، خابرت ولديها في أوروبا، وحكت لهما عن عودةِ والدهما وكان سرورهما كبيراً، وفعلاً لم يكن الموضوعُ سهلاً، فلقد التمَّ الجيران يباركونَ عودةَ هاني، وهم يستفسرونَ عن الفترة التي قضاها بعيداً، وقد فقدَ ذاكرتهُ، وهم بينَ مصدّقٍ ومكذّبٍ، ورغم أن الجميعَ كانوا يعرفونَ مدى نزاهتهِ واستقامتهِ، فلقد بدأت الإشاعات الغريبة عنهُ خلال ساعات، إشاعاتٌ أنّهُ تمكنَ من القفزِ من السيارة، والاختفاءِ المقصود، حيث تزوجَ من امرأةٍ يُحبّها، واختفى كُلّ تلكَ المُدّة حتى تراكمت عليهِ الديون، فعادَ إلى حياتهِ السابقة،

وإشاعة أخرى تؤكد أنهُ كانَ خارجَ البلاد، هارباً من أهلهِ وأسرته، بعدَ أن ارتكبَ الفظائع بحقهم، وهذهِ الإشاعة نشرها أهلهُ عنهُ، وكانوا مدهوشين لسماعِ نبأ عودتهِ، وبينما هو في منزلهِ بعدَ يومٍ من عودتهِ، رنَّ جرسُ البابِ الخارجي، وفتحَ سعدٌ الباب، ليجدَ امرأةً ورجلاً بالباب، لم يعرفهما من قبل.

- نعم ماذا تريدان؟

قالت المرأة:

- والدتكَ موجودة؟

وسألهُ الرجل:

- ووالدكَ موجود؟

- تريدانَ والدي ووالدتي معاً؟

- نعم، لا بأس، نريدُ أن نهنئهُ بالسلامة، ونهنئها بعودته.

- ومن أنتما؟

- أنا ابنُ عمِّ والدكَ واسمي عماد.

- وأنا خالتهُ واسمي نائلة.

- لا بأس.

همسَ عماد:

- لا أصدّقُ أنّهُ نجا، ثقبتُ خزانَ الوقود، وعطّلتُ الفراملَ، وكنتُ أتوقّعَ تدهوراً مميتاً، من المستحيل النجاة منه.

وهمست نائلة:

- أتعتقدُ أنّهُ جادٌّ في رفعِ الدعوى؟

- لا أدري، هكذا أبلغنا المحامي، زاهي يكادُ يجنّ.

فُتحَ الباب وأقبلت هدى بوجهٍ هادئ:

- أهلاً وسهلاً.

- عرفتني، أنا عماد؟

- نعم، عرفتكَ، كيف حالكِ يا سيدة نائلة؟

- بخير، نهنئكِ بعودتهِ، لقد سررتُ كثيراً، ووزعتُ شرابَ الوردِ في كلِّ بيوتِ الحارة.

أزَّ البابُ من جديد وانطلق صوتُ هاني:

- ولم تُلقي بقايا الطعام على الناسِ من جديد؟

- هاني؟ حمداً لله على سلامتكَ؟ ألا تزالُ تذكرُ ذلكَ كنتُ أمزح، هه، ما زلتَ شاباً لم تتغيّر، كأنكَ لم تكبر يوماً واحداً، هه، هذا لمصلحةِ هدى، مبارك يا هدى، إنّهُ سليمُ الجسم، ما زالَ فتياً.

- خير؟ أجئتما للتهنئة فعلاً؟ أم لشيءٍ آخر؟

قالَ عماد بذلٍّ:

- للتهنئة ولشيءٍ آخر، أمعقولٌ يا ابن العم أن ترفعَ دعوى علينا أنا وأخيكَ زاهي؟ وفورَ عودتكَ بالسلامة؟

- ها، تبلغتما الدعوى إذن؟

قالت نائلة:

- إنّهُ عملٌ مُستهجنٌ بالفعل؟

- ولمَ لمْ تكترث بذلكَ من قبل؟

- لأنّني لم أتصوّر في حياتي أنذالاً يعاملونَ أقرباءهم بهذهِ الدرجة من الخِسّة، حتى محاولة قتلي، ثقب خزان البترول، تعطيل المكابح، وأشياء كثيرة اكتشفتها صدفة.

ردّت نائلة:

- وما دخلنا بذلك؟ وما دخلُ عماد وزاهي؟

قالَ بثقةٍ:

- عماد الفاعل، أعرفُ ذلكَ، رأيتهُ يدورُ حولَ السيارة، حينَ رميتِ عليَّ فضلات الطعام، ورأيتُ السخرية التي لم أتصوّرها من الجميع حين عُدت وصديقي لأخذ كُتبي ومخطوطاتي. لن أسكتَ بعدَ اليوم على هذهِ الأفعالِ الشنيعة.

صرخت نائلة:

- تريد طردنا من البيت؟ من بيتكَ؟ أهذهِ أخلاق؟

همست هدى:

- أرجوكَ يا هاني اهدأ قليلاً.

- لا بأس، أنا لا أستطيعُ الصبرَ على وقاحتهما.

(يقتلون القتيل ويمشون في جنازته).

رجتهُ:

- أرجوكَ يا حبيبي، اهدأ قليلاً.

أعادَ هاني اسمهُ للسجلِ المدني، وعادَ للحياةِ بشهادةِ الشهود وفحصِ بصماتهِ وزمرة دمهِ، وأجرى لهُ رئيس الجامعة، هو وأحدُ أصدقائه، حفلَ

استقبالٍ كبيرٍ حضرهُ بقيةُ الأساتذة والموظفين، كما استقبلهُ الطلاب بفرحةٍ كبيرةٍ، وغالبيتهم من الطلاب الجدد الذين سمعوا باسمهِ من زملائهِ القُدامى، ومدى فهمهِ وذكائهِ وحُبّهِ للمساعدة.

وشيئاً فشيئاً عادت الحياة إلى طبيعتها في ذلكَ البيت المنزوي في الضاحية الغربية من العاصمة، ولم يستطع هاني نسيانَ زهرة ووالدها الكهل في ذلكَ الكهف الغريب، وقد اصطحبَ هدى وسعد ليبحث معهما عن الكهف المسكون بأناسٍ ساعدوهُ في محنتهِ، والتقى بالعديدِ من القرويين هناك، وسمعَ تعليقاتهم:

- إنّها كهوفٌ مهجورة، ليس فيها سوى الذئاب والضباع.

- لقد أصيبَ العديدُ من أهالي القرى بجراحٍ خطيرة، من وراءِ اعتداءِ تلكَ الحيوانات والبعضُ قتلتهُ الوحوش.

- ليسَ هناك من كهوفٍ تختفي فتحاتها داخلَ الأدغال.

- لماذا تسأل عن هذهِ الكهوف؟

- إنّهُ عالمُ طبيعيّات كما يقول.

- يقولُ إنَّ مهنتهُ كشف التضاريس والخفايا المنزوية داخلها أو خلفها.

- لا نستطيعُ خدمتكَ مع الأسف، نحنُ لا نعرفُ عن طبيعةِ تضاريسِ المنطقةِ شيئاً.

يئسَ من الوصولِ إلى نتيجةٍ، فعادَ وهدى وسعد إلى العاصمة، ورغمَ تأجيلِ القاضي لدعواه على عماد وزاهي، فإنَ المحامي طمأنهُ أنّها ستنجحُ وظلَّ لغزُ زهرة والكهل دونَ حل.

الفهرس

ضباب القلوب الميّتــة	3
كانــت مملكـــة عامـــرة	25
كهــف الزمـن الغامض	47
العودة إلى فلك الحياة	67